الصليبية الجديدة

في فلسطين

تأليف

وديع تلحوق

لم تكن الصليبية الأولى نزاعاً
بين الصليب والهلال، بل حلقة من
صراع الشرق والغرب ...
وليس الاستعمار الاوروبي
الحديث الا امتداداً للصليبية الأولى...
وليست الصهيونية الباغية غير
عدوان غربي على الشرق ...

مطبعة النضال
دمشق ١٩٤٨

الناشر

مكتبة محمد حسين النوري

دمشق — سنجقدار

الاهـــداء

الى سرايا الفتح العربي الثالث

التي تجتاز أودية اليرموك ، والاردن ، والعربة ...
وتزحف من وراء سهول الرافدين ، وسيناء ...
لتحرير أولى القبلتين وثالث الحرمين

والى شهدائنا الاربعة الخالدين

عز الدين القسام — سعيد العاص
محمود ابو يحيى — عبد الرحيم الحاج محمد

الذين اختطوا بدمائهم الزكية طريق الحرية الحمراء في سبيل تحرير فلسطين العربية

اهدي هذا الكتاب

تمهيد

معنى « الصليبية » القديم ـ تعميم معناها الحديث ـ فقدان الطابع الديني ـ حالة فلسطين الراهنة ـ معركة البقاء والفناء ـ .

« الصليبية » ومعناها الحديث

تحتل « الحروب الصليبية » مكاناً بارزاً في التاريخ العالمي ، وتعتبر من اهم الفصول الرئيسية التي تنطوي عليها دفتا هذا التاريخ . فهي نقطة تحول هامة في حياة الشرق والغرب معاً . وهي من الاحداث الكبرى التي كان لها ما بعدها ، والتي تعد اصلاً لكثير من الحركات السياسية ، او الفكرية ، او الاقتصادية في وقتنا الحاضر ايضاً .

وليس لنا ان نطيل الكلام في تعريف « الصليبية » ، او اظهار ماهيتها واهميتها . لكنه لا بد لنا ـ وقد اتخذناها كحلقة رئيسية تربط الحاضر بالماضي ـ من ان نقف قليلاً عند هذه اللفظة التي اخترناها عنواناً لكتابنا هذا ، فنرى مصدرها ونشأتها ، والمعنى الاصلي الذي وجدت للتعبير عنه . ثم نبين بعد ذلك المفهوم الجديد لها ، ومقدار انطباقها على حقيقة الصراع الاممي الراهن ، الذي نخوض

غماره حالياً كامنة، والذي اتخذ جزء غال من الوطن العربي الاكبر، مسرحاً له .

اتخذت كلمة « الصليبية » اسماً لحلقة اساسية من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب . ونعني بذلك ، الحروب التي وقعت في القرون الوسطى بين شقى العالم القديم ، وامتدت ردحاً طويلا من الزمن . والسبب في اطلاق هذا التعبير على تلك الحروب الطويلة العنيفة ، هو ان كبار قادة الصراع في اوروبا آنذاك ، الذين اعدوا خططه واهدافه ، وقاموا بتوجيه انظار شعوبهم اليه ، عمدوا الى استخدام العاطفة الدينية لايقاد جذوته ، لكونها اقوى العوامل المعنوية في التأثير على نفوس الشعوب الاوروبية في تلك العصور ، ولان بعض هؤلاء القادة كان من رجال الدين الرسميين . فاتخذ « الصليب المقدس » رمزاً لتلك الحركة التي كان يقصد منها تأليب الغرب ضد الشرق ، لاغراض وغايات سنأتي على تفصيلها في حينه . واصبح « الصليب » اذ ذاك شعار الجيوش الاوروبية الغازية . بل اصبح يرسم على جميع اعلام الفرق والوحدات المحاربة ، وحتى على لباس كل جندي منهم ايضاً . ولهذا السبب انتسبت تلك الحروب الطويلة الامد ، والمتشعبة الادوار والمظاهر ، الى هـــذا الشعار الديني الرمزي ، وسميت باسمه في التاريخ ، رغم انحرافها عن الدعوة المثالية الاولى التي قامت باسمها .

وبالنظر لما احرزته « الحروب الصليبية » هذه من المكانة في التاريخ ، وما اسفرت عنه من النتائج الجسام ، وخلدته من الاحـداث والاساطير ، شاع اسمها التاريخي هذا في جميع العصور ، واتخذه العالم الغربي لقبـاً لكل حركة اجتماعية يدعى اليها ، مهما كان نوعها ، او مصدرها ، او غاياتها ، سيان كانت تلك الحركة داخلية او خارجية ، او عدوانية او دفاعية .

ففقدت بذلك طابعها الديني الاصلي الذي عرفت به في التاريخ القديم ، ولم

تعـد قط تعني الصراع بين الصليب والهلال ، كما كانت في دورها الاول . حتى لقد افرط الرأي العـام الاوروبي ، وبعض قادته ايضاً ، في استعمال تعبير « الصليبية » لأية حركة عامة كانت . اذ اصبح مألوفاً في عصرنا الحاضر حتى ، ان تطلق هذه اللفظة في بعض بلدان الغرب على اية موجـة من الدعاية العامة ، المؤيدة او المعاكسة ، لاي مبدأ سياسي ، او اقتصادي ، او اجتماعي ، او ما شاكل ذلك . ناهيك عما جنح اليه موسوليني مثلاً من اطلاق اسم « الصليبية » على حملته الاستعمارية العدوانية على الحبشة عام ١٩٣٥ ، وهي بلاد مسيحية عريقة ثم استعمال هتلر للتعبير نفسه في محاولته لاستثارة اوروبا ضد انكلترا ، او اوروبا وانكلترا معاً ضد روسيا ، وهو الذي أسس دولة لادينية ، ان لم نقل أنها قامت على اضطهاد الدين ايضاً .

لذا نرجو ان يتبين القارىء من ابتداء البحث أننا اذ نطلق اسم « الصليبية » على الصراع الناشب حالياً في فلسطين ، لانعني بذلك المعنى الديني السابق لهذه الكلمة . او اعتبار روح الثورة الجياشة في العالم العربي الآن مستندة الى العامل الديني فحسب ، او يجب ان تستند اليه . بل هناك اعتبارات اخرى دفعتنا الى اختيار هذا التعبير ، سيتبينها القارىء في الفصول القادمة .

هذا مع العلم ان المسيحيين – اصحاب الصليب – على اختلاف ديارهم واجناسهم ، لايقلون عن المسلمين حقاً ومسؤولية في الدفاع عن الديار المقدسة في فلسطين ، ضد العدوان الصهيوني الآثم . كما ان العرب الذين يقفون صفـاً واحداً لخوض هذه المعركة الحاسمة في نضال البقاء والفناء ، انما يخوضونها كأمة متحدة ، لاكطوائف ومذاهب . ويدافعون فيها عن كيانهم القومي والسياسي ، ومرافقهم الاقتصادية ، ومصالحهم كشعوب حرة حيـة ، تريد ان تحتفظ بوجودها الطبيعي في العالم .

لكننا اذا عمدنا الى التبصر في وضع فلسطين الراهن ، من النواحي السياسية ، والقومية ، والعسكرية ، نجد الحالة فيها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه منذ تسعماية سنة خلت تقريباً . عندما اندفع الغرب بجيوشه واعلامه ، وامرائه وحكامه ، ومفكريه وكهانه ، الذين نفروا من مختلف الاقطار والبلدان ، وجاؤا ينازعون الدول الاسلامية حق سيطرتها على مهد المسيح وقبره ، ويتهمون سكان هذه البلاد المقدسة بالتعصب الذميم ، والهمجية المشينة ، بدعوى انهم يعترضون سبيل الحجاج المسيحيين ، فيحرمون نصارى الغرب من ممارسة حقوقهم الدينية في بلاد هي مهد دياناتهم السماوية ، ومجمع مقدساتهم المثلى ، وتقاليدهم التاريخية .

وها هم الصهيونيون الآن ، يجمعون جموعهم من شتى بقاع الارض ، ويدخلون الى فلسطين بصور شرعية وغير شرعية ، ويؤلفون الجمعيات العنصرية والارهابية ، كل ذلك في سبيل تحقيق حلمهم الذهبي بتشكيل دولة يهودية لهم في هذه البلاد ، بحجة انها مهدهم الاول ، ومقر سلطانهم التاريخي القديم ، ومناسكهم الاسطورية . كما انهم يتسلحون ايضاً بدعوى التهرب من الظلم والاضطهاد اللذين يتعرضون لهما في البلدان الاخرى ، مما يوجب على الانسانية - على حد زعمهم - ان تعيدهم الى وطنهم الاول ، ليعيشوا كشعب آمن حر ، يتمتع بما تتمتع به سائر شعوب الارض من الطمأنينة والسلام .

ففي كلا الحالتين ، يتخذ من الاغراض الدينية العاطفية ، والآثار التاريخية القديمة ، حججاً لستر المطامع المادية والسياسية ، كما تتخذ فلسطين نقطة تتمركز فيها قوات الغزو الغربي في صميم الشرق العربي . لا لتبقى محصورة في هذه البقعة

الضيقة بين الآثار القديمة التاريخيـــة ، والمناسك الدينية المقدسة ، بل لتبسط سلطانها على ماجاورها من الاقطار العربية ، وتقيم لها فيها الممالك الضخمة ، وتستثمر ما فيها من الخيرات والمرافق .

فيحق لنا ان نعتبر اذن ، ان هذه الحركة الصهيونية الجانية ، الرامية الى انتزاع منكبة فلسطين العربية من ايدي اصحابها الشرعيين ، حلقة جديدة من سلسلة عدوان الغرب على الشرق . كما ان تضافر سائر قوى الغرب الاستعمارية في تأييد الصهيونيين الجناة في محاولاتهم هذه ، ووثوب العالم العربي بأسره الى الى مجابهة هذا الطغيان الاستعماري الماحق ، يجعل المعركة الحاليـة ، فصلاً من تاريخ الصراع القديم بين الشرق والغرب .

واننا اذا امعنا النظر في تاريخ الاستعمار الحديث في الشرق العربي . وتتبعنا خططه ومناهجه ، ودققنا في تحليل مظاهره ومواطنه ، نجد ان هـذه الدولة اليهودية الطفيلية ، التي يراد انشاؤها في فلسطين ، ليست قائمة بنفسها ، ولا هي وليدة الحركة الصهيونية الرعناء لوحدها . بل هي جزء من برنامج الغرب الاستعماري في بلاد العرب ، الذي يعتبر بعثاً لمطامع الدول الصليبية الاولى ، التي انشئت قديماً على سواحل البحر المتوسط ، ويحمل في طياته اهدافاً اقتصادية جديدة ، جاءت وليدة العوامل الحديثة التي ظهرت في الغرب في القرون الاخيرة .

لذا رأينا ان نعمد الى درس الوضع الراهن لهذه القضية القومية الحيوية ، على ضوء المقارنة بين الماضي والحاضر ، وسيجدن القاريء مجال المقارنة فسيحاً وصحيحاً في كثير من الاحيان ، واذا كانت المقارنة تبدو منطبقة اتم الانطباق فيما يتعلق بتجدد مطامع الغرب الاستعمارية في البلاد العربية ، وتشابه الخطط والاساليب المتبعة في القديم والحديث ، فقد تكون اكثر انطباقاً من حيث

وضعية العالم العربي. الذي فاجأه الغرب بغزواته الماحقة في الحالتين ، وهو مبعثر القوى ، مفكك الاوصال . فما كان منه الا ان اتخذ من الخطر دافعاً لابراز حيوياته الكامنة ، فحرل الضعف الى قوة ، والخمول الى ثورة ، والتنازع والتفرقة الى اتحاد في سبيل المقصد الاسمى . وكل مانرجوه في نضالنا الحالي ، ونحن في اول غمرات معركة التحرر الحاسمة ، ان يكون ثمة مطابقة بالنتائج ايضاً . فنجدد ايام حطين ، ونبعث امجاد صلاح الدين ، ويجتاز الشرق العربي هذه المحنة القاسية ، كما اجتاز ما سبقها من المحن ، بفضل ما في هذه الامة من قوى حيوية كامنة ، وما فطرت عليه من روح النضال في سبيل الحرية والتفاني دون المثل القومية العليا ، والله من وراء القصد .

صراع الشرق والغرب

لمحة سريعة في التاريخ القديم ـ الفتوحات العربية في الغرب ـ الحروب الصليبية (كرد فعل للفتوحات العربية) ـ الفتوحات العثمانية في اوروبا ـ المسألة الشرقية والتوسع الاستعماري الحديث (كرد فعل للفتوحات العثمانية) ـ نهضة الشرق الحديثة .

اذا اردنا ان نلم الماماً سريعاً موجزاً بتاريخ الصراع القائم بين الشرق والغرب ـ هذا الصراع الذي نعتبر المعركة الدائرة حالياً في فلسطين احدث ادواره ، وآخر حلقاته ـ نجد ان جذوره تمتد الى عشرات القرون السالفة ، وان ميادينه كانت متعددة متشعبة في مختلف الادوار والعصور . واذا جاز لنا القول ان روح التنازع بين البشر موجودة منذ خلق البشر اصلاً ، فنستطيع ان نقول ايضاً ان تاريخ الصراع بين الشرق والغرب قائم منذ عرف التاريخ .

وقد انصرف بعض المؤرخين المعاصرين الى درس هذا الموضوع ، فاعتبروا مبدأ النزاع بين الشرق والغرب عائداً الى عهد حروب الفرس واليونان ،

تلك الحروب التي تعود الى نيف وثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . كما يعتبرون الحروب الطاحنة التي دارت بين روما وقرطاجنة من بعد ، في سبيل التفرد بالسيادة على البحر المتوسط ، من اهم ادوار ذلك الصراع ، وابرز مظاهره . ثم ان الحروب التي دارت بين اباطرة الرومان وخلفاء الاسكندر من البطالسة والسلوقيين وغيرهم ، انما هي فصول متممة له ايضاً .

وقد دخل العرب في مضمار هــذا الصراع ، منذ خروج موجات الهجرة العربية الاولى من قلب الجزيرة ، واستيطانها اجزاء الهلال الخصيب . وكان ذلك خلال القرن الثاني للميلاد عندما جاءت جموع العرب الاولى من الانباط والتدمريين ، الى سورية الجنوبية والشمالية فوجدوا الرومان قد نشروا سلطانهم على هذه البلاد . فاشتبكوا مع اولئك الحكام بحروب متتابعـة ، كانت الغلبة فيها للعرب . فانشأوا مملكة (البطراء) الشهيرة في جنوبي سورية ، ومملكة تدمر في شمالها . ونما شأن هاتين المملكتين ، وكانت لها فتوحات واسعة . لا سيما في عهد زنوبيا ملكة تدمر العبقرية ، التي نزعت سيطرة الغرب الرومانية عن شرقي البحر المتوسط باسره ، حتى كادت تستولي على مصر ايضاً ، كما هو معلوم . فشق ذلك على روما العاتية ، فهب بعض ملوكها العظام يثأرون لعظمتهم المثلومة ، ومجدهم المهدد . فجردوا الجيوش الجرارة على الشرق ، واجتاحوا تلك الممالك العربية الفتية التي كادت تكون نواة البعث العربي الاول . وثبتوا سيطرة روما على سواحل البحر المتوسط الجنوبية والشرقية بصورة مطلقة . فكان هذا ايذاناً بتغلب الغرب على الشرق نهائياً في التاريخ القديم حتى ظهور الاسلام .

الفتوحات العربية

ودار الزمن دورته الطبيعية طوالي ثلاثــة قرون . وانتقل مصدر السيادة

الرومانية من الامبراطورية الغربية في روما ، الى الامبراطورية الشرقية في (بيزنطه) القسطنطينية . وكان البيزنطيون ينعمون بالسيطرة على السواحل العربية للبحر المتوسط بحكم الميراث . لاينازعهم السيادة فيها الا غزوات موقتة من الشرق ، يشنها عليهم الفرس بين الفينة والفينة ، وتتراوح بين المد والجزر وكان سكان سورية من العرب – وهم الغساسنة ولفيفهم – خاضعين لحكم الروم هذا ، قانعين منهم بالقاب الشرف ، وقليل من السلطة الادارية في بعض المناطق ، كما كان المناذرة في العراق بالنسبة لدولة الفرس .

وفي اوائل القرن السابع للميلاد ، شعت انوار البعث الجديد في قلب الجزيرة العربية . واخذت تلك الصحراء الظامئة ، المجدبة الا من الايمان ، تتمخض عن ثورة كبرى ، لم يكن احد يعرف مداها قط ، ولايحسب انها ستبلغ ما بلغته من العظمة والامتداد . تلك هي الرسالة السماوية الخالدة ، التي أنزلت على سيد العرب وقائدهم الاعظم محمد بن عبد الله (ص) فجعلت من العرب بعد الخنوع والبداوة والجهل ، أمة حية بكل ما في الحياة من معنى ، متوثبة للمجد مستعدة لتبني رسالة الحضارة المثالية وتلقينها الى العالم على شفار السيوف ، وتحت رايات الفتح . وكان ذلك اعظم نقطة تحول عرفها تاريخ العرب ، بل تاريخ الشرق قاطبة ، كما كانت تلك الثورة العالمية الايجابيه ، من اعظم ما شهده تاريخ البشرية على الاطلاق .

ولقد كانت هذه الثورة العربية الكبرى ، منذ تكوينها وميلادها ، عميقة الاغوار ، بعيدة الاهداف والمرامي . اذ كان الرسول الاعظم منذ ادوار دعوته الاولى ، يعمل جاهداً لتلقين ابناء قومه مبادىء رسالته المثالية هذه ، لكنه يتلفت بنفس الوقت الى ما وراء حدود الجزيرة العربية ، فيرى عالماً يخبط في دياجير الجهل ، لايقل عن عرب الجاهلية حاجة الى الاصلاح

وفقراً الى الهداية ، كما كانت رغبة الفتوحات الخارجية تجيش في صدر محمد بن عبد الله ، قبل ان تمكن من فتح مكة المكرمة والاستقرار فيها ، وكانت رسله تجوب اطراف الارض ، تدعو كبار ملوك العالم المعاصرين الى الاسلام ، قبل ان استجاب له سائر قريش ، وقبل ان اوغلت الدعوة في اطراف الجزيرة .

لذا نرى ان تلك الرسالة السماوية العظمى التي انزلها الله تعالى على نبيه محمد (ص) فاذاعها النبي بدوره على الامة العربية ، لم تكن قومية ومحلية فقط ، بل كانت أممية وعالمية منذ ظهورها . وان الدولة العربية الكبرى ، التي وضع قائد العرب الاول نواتها الاولى بين يثرب ومكة في الحجاز ، كانت منذ تكوينها تحس ان حدودها الطبيعية هي خارج الجزيرة العربية ، بل خارج كل بقعة وجد فيها من ينطق بالضاد . وهذا هو سر الفتوحات العربية العظمى التي غيرت وجه التاريخ ، وهذا هو العامل الروحي الحقيقي فيها ، الذي يعجز كثير من المؤرخين عن ادراك كنهه واستجلاء غوامضه .

على اننا اذا اتينا لدراسة الفتوحات العربية على ضوء هذه الحقائق الواقعة والعوامل الحسية ، نجد ان هذه العوامل تنسجم كلياً مع العامل الروحي الذي تضمنته هذه الرسالة السماوية التي ظهرت بين العرب في وسط جزيرتهم ، فاعتنقوا مبادئها ، واستناروا بهديها . فلم يكن لهم بد على كل حال من اجتياز حدود الجزيرة العربية ، وانقاذ اخوتهم العرب الذين استوطنوا ثغور الشام والعراق قبل كل شيء . حتى ولو اعتبرت دولتهم الجديدة هذه دولة قومية بحتة . وهذا ما جعلهم في حالة احتكاك عنيف مع الفرس والروم منذ خطواتهم الاولى في برنامجهم الجديد ، وهما اعظم قوتين عرفهما العالم في ذلك الحين . لذا اصبح مقدراً لحركة البعث الجديد العربية هذه — مهما كانت صفتها وحدودها — ان تجابه تينك الامبراطوريتين العظيمتين معاً ، ليكتب الظفر والبقاء لأحد الفريقين المتقابلين دون آخر .

لهذا دخلت الدولة العربية الفتية في حلبة الصراع العالمي فور تكوينها بطبيعة الحال . سيان كانت بذلك مكرهة ام مختارة . وفرض عليها ان تتخذ سبيل التوسع والفتح ، لانقاذ العرب الخاضعين لحكم اجنبي ، ولنشر مبادئها المثالية الجديدة بآن واحد . فكان ان اشتركت جميع هذه العوامل والاسباب — مع عوامل فرعية اخرى لامجال لذكرها الآن — الى توسيع مدى الفتوحات العربية في تلك الفترة من التاريخ . بحيث لم يعد يكتفي العرب بتحرير بعض اجزاء من وطنهم كانت محكومة من قبل الروم والفرس ، بل اندفعوا وهم في عنفوان الايمان ، وسورة الثقة بالنفس ، الى تأسيس تلك الامبراطورية الكبرى ، التي اوغلت في قلب القارات الثلاث : آسيا ، وافريقيا ، واوروبا . فكان ذلك آية الدهر ، ومعجزة التاريخ . وليس لنا في هذا المقام ان نسترسل في الكلام عن الفتوحات العربية بصورتها العامة ، بل لابد من ان نقصر البحث على الفتوحات العربية في اوربا ، لانها هي الحلقة التي ننشدها ببحثنا الحالي في استعراض صراع الشرق والغرب ...

دخل العرب الى القارة الاوربية بصفة فاتحين لاول مرة في التاريخ ، في مطلع القرن الثامن للميلاد ، وكان دخولهم اليها عن طريق اسبانيا كما هو معلوم . ثم ما لبثوا ان اندفعوا في الفتح ، حتى اجتاحوا شبه جزيرة ايبريا بكاملها ، ثم تجاوزوا جبال البيرنيه ، واوغلوا داخل الاراضي الافرنسية حتى بلغوا ضفاف نهر اللوار . ولم تكد تتلاشى قوة الاندفاع العربي في هذا الميدان ، حتى كانوا قد شقوا لهم طريقاً آخر للتغلغل في قلب القارة الاوروبية وكان هذا عن طريق جزيرة صقلية ، وجنوبي ايطاليا . وقدر لهم في هذا الميدان — الذي لايزال معظم تاريخه مغموراً — ان يبلغوا اواسط سويسرة والنمسا ، واطراف البلقان من الغرب . وقد استقر حكم العرب طويلاً في

معظم هذه المناطق المفتوحة ، وقامت لهم فيها دول شهيرة ، وانشأوا حضارة مجيدة زاهرة ، كانت هي قبس النور الوحيد في الغرب آنذاك ، لان الشعوب الاوروبية بأسرها كانت لاتزال ممعنة في جاهليتها ، وغارقة في دياجير القرون الوسطى التي تدعى (بعصور الظلمة) بالنسبة للتاريخ الاوروبي .

لكن العرب الذين لم يكونوا يتقنون اساليب الاستعمار ، لم يستفيدوا من فتوحاتهم هذه ، بقدر ما استفادت منها البلدان المفتوحة . اذ انهم عندما تمركزوا في القارة الاوروبية في عدة مواضع ، راحوا ينشرون مبادىء حضارتهم الفضلى ، وانوار العلم والعرفان حيثما حلوا . وعملوا جاهدين على انتشال الشعوب الاوروبية من وهدة الجهل والهمجية ، ورفع مستواها من سائر النواحي الفكرية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ايضاً . وكانوا يقومون بنشر برنامجهم التمديني هذا بدون مراعاة مصالحهم الخاصة كامة فاتحة متسلطة ، يهمها ان تستفيد من مواطن الضعف لدى الشعوب المحكومة من قبلها ، او مقاومة عناصر النهوض والرقي في البلدان المفتوحة ، كما تفعل الدول الاستعمارية في عصرنا الحاضر . فكان من نتيجة ذلك ان اصبحت هذه الفتوحات العربية في اوروبا سبباً رئيسياً لنهضة الغرب ، كما كانت الى حد بعيد ، عاملاً اساسياً في كبوة الشرق ، الذي وزع قواه في ميادين بعيدة غير مترابطة ، ولم يدخر قوة مركزية ، او يحافظ على سياسة عنصرية معينة ، يستعين بها للدفاع عن كيانه الخاص ، او مجابهة الطوارىء والانتقاضات في تلك الامبراطورية المترامية الاطراف .

وبالفعل لم يمض الا قرنين من الزمن ، حتى كانت الحضارة العربية الزاهرة ، بجميع اسبابها ووسائلها ، ومبادئها القديمة السمحاء ، قد ايقظت الشعوب

الاوروبية من سبات الجهل والتأخر . فما كان من هذه الشعوب التي تعلمت من العرب معاني الحياة الراقية ، الا ان بدأت تجمع قواها للعمل على التخلص من اولئك الحكام الاجانب ، وطردهم من القارة الاوروبية ، واستخلاص جميع ما بايديهم ، والتحرر التام من سلطانهم ، وهذه سنة الله في خلقه . وقد تجلت هذه الثورة الاوروبية على الحكم العربي ، بسلسلة من الحروب المحلية المتقطعة ، التي كانت تدور في المناطق المحتلة في اوروبا ، ثم في الحروب الصليبية الكبرى التي كانت اول هجوم اجماعي يشنه الغرب على الشرق ، والتي تعتبر من ابرز فصول هذا الصراع التاريخي العنيف الذي نحن بصدده الان .

الحروب الصليبية

يجمع المؤرخون على القول بان الحروب الصليبية الاولى كانت بمثابة رد فعل للفتوحات العربية في الغرب . كما اشرنا الى ذلك اعلاه . والبرهان على هذا الرأي هو ان الثورة والانتقاض على حكم العرب في اوربا ، لم يظلا محصورين ضمن حدود المناطق المحتلة فقط . وسبب ذلك هو ان القارة الاوربية بامرها ، اعتبرت اقتحام العرب لأراضيها عدوانا عاماً وقع عليها ، وغزوا عسكريا اكتساحياً يقوم به الشرق ضد الغرب . وكان يقوي هذا الاعتقاد في نفوس الاوربيين ، ملوك البيزنطيين الذين كانوا يعتبرون العرب عدوهم الاول ، والخطر الاوحد الذي يهدد سلطانهم من الشرق والغرب بآن واحد . كما كان هؤلاء على يقين ايضاً ان العرب لن يتحولوا عن فكرة فتح القسطنطينية ، وانه لابد لهم – للبيزنطيين – من ان يدخلوا مع هؤلاء الغزاة معركة حاسمة ، هي معركة البقاء والفناء .

كما ان الكنيسة الغربية التي كانت صاحبة السلطة الاولى في العالم المسيحي ،

آنذاك ، والتي احتكرت العلم والثقافة والتوجيه الفكري كما هو معلوم في تاريخ القرن الوسطى ، رأت بهذا العنصر الجديد الذي جاء ينشر حضارته المثالية ، ويخلق نهضة فكرية متحررة من كل قيد ، اكبر خطر على سلطتها التقليدية القائمة على الجهل لا على العلم . فرأت نفسها مضطرة ان تخوض هي ايضاً مع العرب حربا عنيفة مصدرها نزاع المبادىء والفكر . لتسترد سيطرتها على رعاياها .

لذلك اتحدث هذه العوامل كلها،وقامت تجسدهول الخطر العربي في اوروبا، وتدعو جميع الشعوب الاوربية من محكوم ومتحرر ، لا لطرد هذا العدو من القارة الاوروبية فحسب ، بل لمهاجمته في عقر داره ، والقضاء على منابع قوته وسلطانه المركزي ، كيلا يتجدد خطره في المستقبل ، ويسهل بعد تسديد الضربة الى الصميم ، تطهير المناطق المحتلة من قبله في اوروبا ، سيان اشتدت مقاومته ام ضعفت . وعلى هذه الصورة تألب الغرب كله على الشرق، فأعلن تلك الحرب الاجماعية ، التي شنها باسم « الصليب » لكونه اعظم شعار يتفانى شعوب اوروبا في ذلك العهد في سبيل الدفاع عنه .

فلم تعد حركة الغرب هذه - بعد تكامل اسبابها - ثورة تحريرية يقوم بها المحكوم على الحاكم ، وحربا دفاعية يقصد بها رد عدوان اجنبي وتأمين السلامة الذاتية ، كما كانت عواملها الاولى في البدء . بل انتقل الغرب فيها من الدفاع الى الهجوم ، ومن مطلب التحرر الى مطامع السيطرة والاستعمار . كما انها ازدادت تطوراً وتشعباً بنوع خاص ، عندما دخلت الجيوش الصليبية الى البلاد العربية ، فشهدت من نعم الدنيا ما لم تكن تحلم به من قبل ، وعرفت من انواع الحياة ما حبب اليها الحياة في تلك البلاد ، التي اضمروا لها فكرة العداء من قبل ان يعرفوها ، نظراً لما أخذوا به من الدعاية المضللة .

وليس لنا الآن ان نسترسل في تحليل عوامل الحروب الصليبية واطوارها، لأننا قد افردنا لذلك فصلاً رئيسياً في هذا الكتاب ، باعتبارها موضوع مقابلة مع العدوان الغربي الراهن الذي نفر العرب باسرهم حالياً لمقاومته وصده . ولكننا نقتصر على القول في هذا المقام بان تلك الحروب هي التي اذكت نار الحقد بين الشرق والغرب في التاريخ ، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . وفتحت عيون الشعوب الاوربية على الاقطار العربية ، فغرست فيها بذور الطموح للسيطرة عليها ، واصبحت فكرة الاندفاع نحو الشرق ، سياسة تقليدية لدى كل الدول التي تنشأ في اوروبا . فلا غرابة اذا قلنا ان تاريخ الاستعمار الاوروبي الحديث يعود الى عهد الحروب الصليبية هذه . وان كثيراً من الاساليب المتبعة الآن ، مثل تجزئة البلاد الى دويلات متعددة ، ودفع موجات المهاجرين للاستيطان والتمركز تحت حماية القوات المسلحة ، واتخاذ دعوى الحقوق التاريخية ، وحماية الاماكن الدينية المقدسة حجة لاقامة دول استعمارية عدوانية ، كل هذه الاساليب الجهنمية مقتبسة من ذلك الدور الصليبي المشؤوم . وسيتبين القارىء كل هذه الحقائق بصورة ادق واوفى في الفصول القادمة انشاء الله .

الفتوحات العثمانية

بينما كانت جيوش الغرب الصليبية تجمع فلولها للانسحاب من البلاد العربية بعد صراع طويل الامد ، لم تحقق اهدافها المنشودة فيه ، كانت قوات غزو شرقية جديدة قد ظهرت الى عالم الوجود ، وبدأت تتجمع في آسيا الصغرى ، لتثب الى القارة الاوروبية عبر المضايق التي تفصل شقي العالم القديم عن بعضهما بعضاً . تلك كانت قوات الاتراك العثمانيين التي خرجت من اواسط آسيا بصفة

قبائل همجية ، فقامت بموجة من التخريب والتدمير في اندفاعها الاولي . لكنها عندما وصلت الى البلاد العربية وماجاورها في الشرق الاوسط ، اعتنقت الديانة الاسلامية ، واخذت ببعض اسباب الحضارة والمدنية ، فهذبت طباعها ، وعدلت اساليبها في الفتح ، وانشأت دولة متحضرة راحت تطمع بالسيطرة على العالم سيطرة نظامية .

كان ظهور الدولة العثمانية في آسيا الصغرى في اواسط القرن الثالث عشر . وكانت الدويلات العربية لا تزال قائمة في جنوب اوروبا وجنوبها الغربي . وكانت عاصمة العثمانيين الاولى مدينة (بروسه) التي تقع في قلب الاناضول . واتخذت تلك الدولة الاسلامية الفتية سياسة الفتح العسكري خطة اساسية لنموها واتساعها ، وتقليداً جوهرياً يتوارثه حكامها وسلاطينها خلفاً عن سلف . ونظراً لتغلب الروح الدينية على المبدأ العنصري ، اتجهت مطامعها نحو الغرب ، بدلاً من ان تكتسح بقايا الدويلات العربية التي كان الضعف قد بلغ منها كل مبلغ . وكانت مدينة « القسطنطينية » ـ عاصمة البيزنطيين ـ هي قبلة انظار الحلقة الاولى من سلاطين آل عثمان وقادتهم العظام .

وبعد سحابة قرنين من الزمن ، كانت مليئة بالحروب والغزوات ، بسط العثمانيون سيطرتهم على آسيا الصغرى بأسرها ، واستولوا على شواطيء البحر الاسود الجنوبية ، واصبحوا امام اسوار القسطنطينية وجهاً لوجه . وفي عام ١٤٥٢ (م) تمكن محمد الفاتح من عبور المضايق ، والاستيلاء على عاصمة البيزنطيين بعد ملاحم تاريخية خالدة . وقد اعتبر هذا الفتح الشرقي العظيم حدثاً هاماً لايضاهيه الا عبور طارق بن زياد مضيق الاطلسي الى اسبانيا ، واتخذه المؤرخون نقطة تحول رئيسية في تاريخ العالم .

اما الاوروبيون فقد كانت دهشتهم عظيمة للغاية من هذه المفاجأة الكبرى .

اذ بينما كانوا يحلمون بان يروا محاق طرف الهلال الايسر الذي كان لايزال يغمر قسماً من غربي القارة الاوروبية ، اطل عليهم طرفه الايمن فوق القسم الشرقي من قارتهم هذه ، وهو اكثر لمعاناً ، واقوى توهجاً ، وبالاحرى اشد خطراً . وكان ذلك دليلاً على ان معركة السيادة بين الشرق والغرب ، قد كتب لها ان تستمر بدون هواده ولا توقف . وعلى ان هزيمة العرب في غربي اوروبا وجنوبها ، لم تضمن للاوروبيين الظفر الاخير .

نعم انه لا يمكن ان نعتبر الفتوحات العثمانية هـــذه ، امتداداً للفتوحات العربية في الغرب او في الشرق . اذ من الواضح ان العرب انفسهم كانوا من جملة ضحايا تلك الفتوحات الاكتساحية العنيفة . لكن هناك حقيقة واضحة اخرى ايضاً ، اجمع عليها جمهرة المؤرخين . وهي ان العامل الديني كان العصب الرئيسي في تقوية روح الفتح لدى العثمانيين . وان تلك القبائل الهمجية اصلا ، لو لم تعتنق الدين الاسلامي بعد خروجها من مجاهيل منغوليا ، لما تسنى لها ان تألف النظام ، ولا ان تتحول الى امة متحضرة ، ودولة تنزع الى السيادة العالمية . فنستطيع ان نخلص الى القول اذن ، ان الفتوحات العثمانية الجبارة هذه ، التي اتخذت الاسلام دعامتها الاساسية ، كانت تتمة لاداء رسالة العرب المثلى التي قاموا بفتوحاتهم الاولى في سبيل ادائها ونشرهـــا في سائر اقطار الارض ، وان كان هذا العنصر الجديد لم ينتج خلال فتوحاته التكميلية ما انتجه العرب من حضارة ، وثقافة ، ويقظة فكرية ، هي ينبوع الحضارة العالمية الراهنة .

ولقد اوغلت الفتوحات العثمانية في قلب اوروبا ايما ايغال اذ خفقت راية الهلال على اسوار فينا كما هو معلوم . وانتشرت الجيوش الغازية في شمال الدانوب حتى بلغت اراضي بولونيا . واقتحمت جبال القفقاس المنيعة . وبجمل

القول ان هـذا الفتح الشرقي الجديد غمر معظم القارة الاوروبية . واستولى بصورة خاصة على المناطق التي لم تمتـد اليها راية الفتح العربي السابق .

ولقد كانت سيطرة العثمانيين العنيفة هذه اشد وطأة على الاوروبيين من الحكم العربي المرن . اذ كان العثمانيون يملكون الاراضي المفتوحة امتلاكا . ويستعبدون الشعوب الداخـلة تحت سيطرتهم استعباداً فعلياً . وكثيراً ما اتصف حكمهم بالهدم والتخريب لا بالانشاء والتعمير . على نقيض الحكم العربي في الغرب . وهـذا ما أجج نار الحقد والبغضاء للشرق في صدور الشعوب مرة اخرى .

واستمرت فترة هذا الاندفاع الشرقي الجديد في اوروبا حتى اواسط القرن الثامن عشر . وكانت من اشد فصول الصراع بين الشرق والغرب هولا عنفاً . حتى اذا فعل الزمن فعله العكسي في الفريقين المتنازعين ، فبدأت قوة الفريق المهاجم بالضعف والتلاشي ، وعمت روح النهضة – التي اذكتها الفتوحات الشرقية المزدوجة – سائر أرجاء القارة الاوربية ، انتزعت القوات الاوروبية زمام المبادهة من ايدي العثمانيين كما انتزعتها من ايدي العرب قبلا . وبدأت بسلسلة من الكرات الداخلية الموضعية لتحرير الاراضي الاوروبية المحتلة بقعة اثر اخرى ، ثم انتقلت الى دور الهجوم الواسع الذي شمل سـائر ممتلكات الامبراطورية العثمانية . فكان ميلاد « المسألة الشرقية » ، وكان انتشار مبدأ التوسع الاستعماري الحديث . واخيراً ظهرت الصليبيه الجديدة بثوبهـا الصريح مستأنفة هجومها على الشرق العربي ، هـذا الهجوم الذي تضافرت فيه جميع قوى الغرب ، من لاتينية ، وسكسونية ، وسلافية ، وغيرهـا . ولم يكفها هـذا فقط ، حتى خلقت قوة جـديدة لا في العير ولا في النفير . هي قوة

« الصهيونية » الباغية التي اثارت لنا اعقد مشكلة سياسية وقومية في نضالنا التحريري ضد الصليبية الجديدة هذه . وهذا ما سيكون مدار بحثنا الرئيسي في الفصول القادمة .

« المسألة الشرقية » والتوسع الاستعماري الحديث

منذ منتصف القرن الثامن عشر . اجمعت الدول الاوروبية كلها على هدف واحد مشترك – رغم ماكان بينها من تباين في الآراء وتضارب في المصالح – وهو القضاء على الامبراطورية العثمانية قضاء مبرماً . والتخلص من هذه الدولة الآسيوية التي اقتحمت القارة الاوروبية وكما استخدموا فكرة « الصليبية » لاثارة شعوب الغرب على الامبراطورية العربية في السابق ، استخدموا في هذه المرة موضوع « المسألة الشرقية » لتنسيق مجموع القوى الغربية ضد هذه الامبراطورية الشرقية الثانية .

وقد كان ثمة وجوه شبه بين حركة « الحروب الصليبية » وبين دعوى المسألة الشرقية . اذ كان كلاهما يستند على العنصر الديني في الظاهر ، ويتخذ من هذه الناحية العاطفية وسيلة لاستثارة الشعور الاوروبي العام ، وحجة لتبرير المطامع الخاصة المبطنة وراء تلك الحركة العامة . فكما ادعى قادة اوروبا في القرن العاشر ان العرب يضطهدون المسيحيين في الشرق ، وان الدولة الاسلامية التي تسيطر على الاراضي المقدسة تسد طريق الحج في وجه نصارى الغرب ادعوا في القرن الثامن عشر وما يليه ان الاتراك المسلمين يضطهدون المسيحيين في الغرب وان هذه الدولة الشرقية الجديدة تقوم على عنصر ديني ، وتستهدف استئصال المسيحيين لا من المناطق التي تحتلها فحسب ، بل ومن سائر القارة الاوروبية اذا تسنى لها ذلك ، لذا اندفعت جميع الشعوب الاوروبية في الثورة على الدولة العثمانية في المناطق التي كان العثمانيون يحتلونها . وفي شن

الغزوات والهجمات عليها من الخارج ايضاً . مساعدة لاخوانهم الثائرين لتحريرهم وانقاذ من الحكم الاجنبي الشرقي .

نعم ان الحكم العثماني في اوروبا كان ممقوتا منذ البداءة نظراً لما اتسم به من طابع الظلم والاستبداد والتهديم ، وكان لابد لكل شعب من الشعوب الاوروبية من الثورة على ذلك الظلم القادح ، بصرف النظر عن العامل الديني الذي يختلف بين الحاكم والمحكوم . لكن الدول الاوروبية الكبرى لم تترك حركة التحرر الذاتي تسير بنفسها ، بل اسرعت الى استغلالها ، وصبغها بالصبغة الدينية العامة لدمجها مع اهدافها الخاصة . ذلك لان مبدأ التوسع الاستعماري الحديث كان قد انتشر بينها جميعاً في ذلك الوقت كما هو معلوم . وكانت تلك الدول جميعها تتنافس وتتبارى في هذا الميدان . كل منها تبغي الظفر بحصة الاسد ، وتسعى للسبق الى انتزاع ما تطمح اليه قبل سواها . ولما كانت الدولة العثمانية تسيطر على جميع منافذ البحار الشرقية ، وعلى كثير من البلدان التي تتنازعها مطامع الدول الاستعماريه لذا اصبح لابد من ازالتها من الطريق بأية وسيلة كانت ، لاقتسام تركتها ، وتوزيع ممتلكاتها غنائم واسلابا على تلك الدول الطامحة .

لذلك خلقت الدول الاوروبية الكبرى موضوع « المسألة الشرقيـــة » المعلوم ، القائم على اساس تقويض دعائم الامبراطورية العثمانية ، ليس بغية مساعدة الحركات التحريرية في شرقي اوروبا حباً بشعوبها المضطهدة ، بل في سبيل اتخاذ هـذه الحركات وسيلة للاسراع في تهديم الامبراطورية العثمانية واقتسام ممتلكاتها . حتى لقد اطلقوا على هذه الدولة لقب « الرجل المريض » . وكان هذا اللقب يسير جنباً الى جنب مع اصطلاح « المسألة الشرقة » طوال القرن التاسع عشر . كما كانت المسألة الشرقية هذه ،هي التي تسيطر على توجيه السياسة الاوروبية الداخلية والخارجية ، سيطرة كاملة . لذلك كانت لا تنشب ثورة في

الممتلكات العثمانية في اوروبا – او خارجها ايضاً – الا ويكون وراءها دولة من الدول العظمى : – روسيا ، او انكلترا ، او فرنسا ، او ايطاليا – هي التي تغذيها وتنفخ في نارها . ولا تنتهي تلك الثورة – المحلية بالاصل – الا بعقد مؤتمر دولي يشترك فيه عدد من هذه الدول العظمى ، ويقررون اقتسام جزء معين من تركة « الرجل المريض » .

وعلى هذه الصورة ، امتدت اصابع الاستعمار الغربي الى صميم الشرق العربي رويداً رويداً ، تحت ستار « المسألة الشرقية » واقتسام تركة « الرجل المريض » . ولم تقع الواقعة الكبرى في الحرب الكونيـــة الاولى ، حتى رأينا جيوش « الصليبية الجديدة » تغمر سواحل البلاد العربية برمتها . وقد حاولت هذه الجيوش ان تستغل حركة التحرر العربية في بادىء الامر ، فتظهر نفسها بمظهر الصديق الحليف ... حتى اذا تم لها الفتح ، وساعدها سكان البـلاد على تحقيق اهدافها العسكرية المنشودة ، كشرت عن انياب المطامع الاستعمارية ، ومزقت القناع عن وجه الغزو الاوروبي الجديد ووقفت امام الشعوب العربية تقول لابنائها : انتم جزء من الغنائم والاسلاب ، لاشركاء في الظفر والفتح . وهذ ما اوصلنا الى الوضع الراهن الذي نعاني آلامه الآن ، ونستنفر القوى العربيـة لصد تياره الباغي المتعدد الاشكال ، والمتشعب الاتجاهات . ونستأنف معركة الشرق ضد الغرب من جديد ، بدون هوادة ولا توقف .

* * *

الصليبية الاولى

١ ـ عواملها وادوارها

العامل الرمزي ـ تنوع العوامل الحقيقية ـ موجـات الغزو واهدافه ـ التحول عن الجهاد المقدس الى الاستعمار ـ بين القديم والحديث ـ نتائج الحروب الصليبية .

تحدثنا عن « الحروب الصليبية » في الفصل الماضي ، باعتبارها حلقة معينة في سلسلة الصراع القائم بين الشرق والغرب . فاظهرنا بذلك موقعها التاريخي في هذا الصراع ، واوجزنا في تبيان ماهيتها ، وعواملها . لكن لما كنا نتخذ هذه الغزوة الاجماعية الكبرى التي شنها الغرب على الشرق منذ حوالي الف سنة خلت تقريباً ، صورة تاريخية حية ، انعكست معظم مشاهدها وخطوطها الرئيسية في الغزوة الاستعماري الحديث ، الذي شنه الغرب علينا في العصر الحاضر ، والذي اتخذت فلسطين نفسها ايضاً نقطة التمركز الرئيسي له ، كان لا بد لنا ان نفرد باباً خاصاً لدراسة « الصليبية الاولى » دراسة وافية تقوم على اساس المقارنـة والمقابلة مع الوضع الراهن ، وتظهر فيها وجوه التشابه والتباين بـين جولتي

الصراع الموحد هذا ، على ما بينهما من انقطاع في الزمن واختلاف في المظاهر .

* * *

العامل الرمزي

لقد رأينا في الفصول السابقة من البحث ، ان هذه الحروب العالمية الكبرى ، اقتبست اسمها الذي اتسمت به في التاريخ من لفظة « الصليب » الذي هو شعار المسيحية المقدس . وذلك لان قادتها الاول ، وكبار مولدي الفكرة ، ارادوا اعتبارها جهاداً دينياً ، تقوم به اوروبا المسيحية ضد الاسلام في الشرق. وتذرعوا لبث دعوتهم هذه ، ببعض الاضطهادات التي كان يتعرض لها فريق من النصارى في بعض الدول الاسلامية ، ثم بعدم جواز سيطرة المسلمين الذين يضطهدون المسيحية ، على البلاد المقدسة في فلسطين ، وهي مهد السيد المسيح وسائر المناسك المسيحية المقدسة . فكان ان اتخذت هذه الحرب الطويلة المدى ، والمتسعة النطاق ، طابع النزاع الديني عند نشأتها . كما اتخذت فكرة انقاذ الاراضي المقدسة في فلسطين من ايدي الحكام المسلمين الهدف الظاهري الاول لها .

لكننا اذا دققنا النظر في حقائق تلك الحركة الغربية ، وسبرنا اغوارها ، واستقصينا اسبابها الجوهرية وعواملها الاصلية ، نجد ان العامل الديني المزعوم كان عاملاً رمزيا فقط . وانه واسطة فيها لاغاية حقيقية لها . اتخذ موضوع دعاية بين سواد الشعوب الاوروبية التي كانت في منتهى حالات الخمول الفكري آنذاك ، ولا يوجد ما يؤثر في نفوس ابنائها ويوجههم توجيهاً شبه اجماعي غير الدين . كما انه لم تكن ثمة فوارق رئيسية تميز بين الشرق والغرب ، في تلك الفترة من التاريخ

غير الفارق الديني ايضاً ، بسبب عدم تاصل النزعات العنصرية ، او القومية في النفوس وقتئذ .

لذلك اتقن قادة الحركة الصليبية استغلال هذه الناحية ايما اتقان ، فراحوا يستنفرون الشعوب الاوروبية لمحاربة العرب المسلمين وغزوهم في عقر دارهم ، بالتهويل على اولئك الجماعات السذج بالقول ان حكام العرب في الشرق ، يعترضون سبيل الحجاج الاوروبيين وهم في طريقهم الى فلسطين لزيارة مناسك المسيحية المقدسة . وانهم باستيلائهم على تلك البلاد المقدسة بالقوة يعيثون فيها فساداً ، وينتهكون حرماتها – على حد زعمهم – وهذا ما يعرض الديانة المسيحية الى اشد الاخطار .

ومما عزز هذا التوجيه كون رجال الدين في اوروبا هم القادة الاول لهذه الحركة ، وموقدو جذوتها ، وقادحو زنادها . وهم الذين بدأوا بدعوة شعوب اوروبا الى الجهاد المقدس هذا ، ووجهوا الانظار فيها للزحف نحو الشرق ، قبل ان ينهض اي ملك او حاكم او امير . ويعود السبب في ذلك الى ان الكنيسة الغربية كانت تتمتع بسلطة مطلقة ونفوذ عظيم على سائر طبقات الشعوب الاوروبية ، لايحلم بمثلها حتى اعلى الملوك كعباً واعظمهم شأناً . لهذا كان رجالها اشد حقداً على العرب من الحكام الزمنيين ، لان هؤلاء الفاتحين سيطروا على الفكر الاوروبي بحضارتهم الراقية ، وتعاليمهم السمحاء ، اكثر من سيطرتهم على بعض المناطق والايالات بقوة جيوشهم وسلاحهم . فكانوا بهذا ينازعون الكنيسة على ما تتمتع به من سلطان ، اكثر مما ينازعون الحكام والامراء على الاراضي وما يتصل بها .

وتحقيقاً لهذه النظرية ، فقد كان البابا (اوربان الثاني) هو اول من

دعا الى اجتماع اوروبي عام سنة ١٠٩٥ (م) لبث فكرة الهجوم على الشرق ، بغية انقاذ الاراضي المقدسة من ايدي الكفار (كما ورد في منشوره البابوي) وخطابه التاريخي الشهير في مدينة (كلرمونت) وكان الكهنة ورجال الاكليروس هم اكثرية اعضاء ذلك المؤتمر الشهير. وبعد انفضاض المؤتمر ، انبث رسل البابا في القارة الاوروبية ، يهيجون الرأي العام ، ويستنفرون حتى الغوغاء باسم الجهاد المقدس ، لانقاذ قبر السيد المسيح من ايدي اعداء الايمان المسيحي . وكان الكاهن « بطرس الناسك » الذي خلد اسمه في التاريخ بهذه الواسطة ، من اشد هؤلاء الدعاة حماسة ، ونشاطاً ، وتطرفاً .

وقد تساوت الدعاية الصليبية في القديم ، والدعاية الصهيونية في الحديث في هذا الموضوع ، ليس باتخاذ العاطفة الدينية وسيلة لاثارة الرأي العام الشعبي فقط ، بل في كيفية النظر الى صلة العرب بالبلاد الفلسطينية ، وانكار حقهم القومي فيها . فقد قام الصليبيون الاول ، باظهار العرب بصفة حكام طغاة ، استولوا على هذه البلاد بقوة الفتح ، في حين انه لايوجد لهم اي حق آخر يربطهم فيها . لذلك يجب انتزاعها منهم بالقوة . كما جاء الصهيونيون في الوقت الحاضر يزعمون ان فلسطين هي وطنهم التاريخي ، والديني ، والقومي ، وان العنصر العربي هو عنصر طفيلي طاريء عليها . لذلك يجب اعادة شعب اسرائيل الى وطنه القومي هذا ، ولايوجد اي حرج في اخراج الشعب العربي منه ، مادام دخيلاً عليه اصلاً . وهذا ما لم تنصرف الدعاية العربية الى دحضه وابطاله ، واثبات صلة العرب التاريخية والقومية في فلسطين منذ اقدم العصور ... ليعلم العالم بأسره اي الفريقين هو الدخيل والمغتصب وايها صاحب الحق الشرعي بالبلاد .

واذا عدنا ابحث تكون الحركة الصليبية الاولى ، التي اتخذت العامل الديني

محركاً للشعوب الاوروبية في هجومها الاول على الشرق ، نجد ان الذي يلقي نظرة سطحية على وضعية القارة الاوروبية في ذلك العهد ، يستغرب هذا التوجيه الاوروبي الخاطيء من النواحي السياسية والقومية . فقد كان العرب متغلغلون بعيداً في جنوب اوروبا وجنوبها الغربي . ولهم فيها دول وحكومات ، تتفاوت في القوة والضعف . لذا يحق للمرء ان يتساءل عن السبب الذي جعل قادة الرأي في اوروبا يوجهون انظار شعوبهم لمهاجمة البلاد العربية في الشرق ، وبينهم وبينها آلاف الاميال ، قبل التخلص من الدول العربية في الغرب ، والقائمة على مرأى العين منهم ... !!

وهذا السبب ، هو مفتاح اللغز ، وسر الكوميديا « الصليبية » الحقيقي ... وهو الدليل الاقوى الذي يثبت ماذهبنا اليه آنفاً ، باعتبار العامل الديني عاملاً رمزياً فقط ، والجهاد المقدس واسطة لبلوغ اهداف بعيدة مبطنة ، لا غاية بحد ذاته ...

وتفصيل ذلك هو ان الدول العربية القائمة في الغرب ، كانت مصدر خير ويمن للشعوب الاوروبية . لانهـــا كانت في نظرهم انموذج الحضارة والرقي ، وينبوع الثقافة وحرية الفكر ، فلا يمكن اتهام اربابها بالظلم والاضطهاد ، او الحاق اية وصمة شائنة بها تستثير نقمة السواد والغوغاء عليها . في حين انها كانت هي مصدر الخطر الحقيقي على السلطات الاقطاعية والدينية المستبدة في اوروبا ، وهي التي دفعت برؤساء هاتين الطبقتين لدعوة الشعوب الاوروبية الى الانقضاض على الحضارة العربية الفضلى ، التي كانت تنازعهما السلطة ، وتحرمهما نعمة التحكم والاستبداد .

ثم ان هناك سبباً آخر ايضاً ، هو تأصل روح العصبية القبلية في الشعوب الاوروبية وتفسخ الروابط القومية التي يمكن ان تجمعها ، بل تباين النزعات

القومية وتضاربها ايضاً . لهذا لم يكن ممكناً اتخاذ الفارق العنصري والقومي موضوع دعاية لاستثارة الشعوب الاوروبية ضد الدول العربيـــة الحاكمة في اوروبا ، لانها كانت ذات هيبة وحرمة في نفوس الاوروبيين للاسباب التي اوضحناها آنفاً . فأصبح لابـد لقادة الرأي الاوروبي الذين بيتوا روح الثورة على العرب ، من اتباع ابعد الطرق في مهاجمة هذا العدو الخطر سيان كان في الشرق اوالغرب.حتى اذا تيسر لهم اذكاء نار الحقد في نفوس شعوبهم بواسطة الدعاية السريعة التأثير ، امكن توجيه ذلك التيار لمحاربة العرب داخل القارة الاوروبية امراً ميسوراً لاسيما بعد تسديد الضربات المحكمة لمصـــدر قوتهم في الشرق .

وهذا هو شأن الغرب في جميع ادواره السياسية مـع الشرق ، لا سيما في عصرنا الراهن . يتخذ بعض المبادي المثالية ، والادعاءات الانسانية الفاضلة ، ستاراً يحجب وراءه ما يكنه من المطامع المادية ، والاغراض الانانية الجشعة ، فيسمم فكر ابنائه ـ والرأي العام الدولي ايضاً ـ بهذه المظاهر الكاذبة ،ويجمع مختلف الاهواء السياسية المتنافرة حول عامل مشترك يقره الجميع . حتى اذا استغل موجة الاندفاع العاطفي عن طريق الدعاية المزخرفة ، ضرب بالمبادىء المثالية عرض الحائط ، واسفر عن وجه المطامع الخاصة دون خشية اوخجل .

وما قضية فلسطين في طورها الحالي الا افضل دليل على سوء نية الغرب نحو الشرق بصورة عامة ، وخير انموذج لسياسته المخادعة المضللة . فقد اختلفت الدول الغربية الكبرى على كل مشكلة سياسية عالجوها ، ماعدا المشكلة الفلسطينية ، التي اتفقوا فيها على اتخاذ مصالح العرب « كبش المحرقة » . وتنازعوا على تنسيق المصالح وتخطيط مناطق النفوذ في كل مناطق العالم ، من الصين ، الى ايران ، الى تركيا ، الى اليونان ، الى حوض الدانوب ...

لكنهم اتفقوا على اقامة « دولة يهودية » في هـــذا الجزء من الوطن العربي ـ لا حقق الله احلامهم ـ تكون بمثابة حلقة التماس التي نلتقي حولها مصالحهم المتضاربة .

فهم اليوم يشبهون السكسون ، واللاتين ، والجرمان ، والبيزنطيين في عهد الصليبية الاولى ، الذين كانت الاحقاد تنهش نفوسهم ، ويبيتون الشر لبعضهم بعضاً . فجاء دهاقنتهم ودعوهم لغزو العرب في الشرق ، تحت « راية الصليب » ، فكان ذلك الوسيلة الوحيدة لجمع كلمتهم ، وتوحيد قوتهم . فعسى ان يعتبر العرب بهذه الموعظة ...

تنوع العوامل الحقيقية

اما وقد رأينا ان العامل الديني الذي خلع على الحروب « الصليبية » اسمها هذا ، لم يكن الا عاملاً رمزيا فحسب ، تسترت خلفه المطامع والاغراض الاخرى ، وجب علينا الآن ان نعود الى استجلاء تلك العوامل الحقيقية التي يهمنا الاطلاع عليها ومعرفة كنهها وماهيتها . واذا اتينا الى هذا الموضوع نجد ان ثمة اسبابا وعوامل عديدة ، تنوعت ثم تضافرت ، حتى حولت العالم الغربي باسره الى جذوة من الحماسة والاندفاع ضد الشرق ، ظلت تتلظى بضعة قرون هي بالواقع عوامل سياسية واضحة ، مستوحاة من نزعة حب السيادة والتسلط ، وبالاحرى تتمة سلسلة الصراع بين الشرق والغرب ، كما اوضحنا ذلك من قبل. وها نحن نتناول تلك العوامل بشيء من التبسط والايضاح .

(اولا ـ الهجوم الدفاعي) في الفن العسكري نوع من انواع الهجوم ، يلجأ اليه المغلوب لا الغالب والمحصور لا المحاصر . هو الهجوم المعاكس حسب التعبير الفني ، او الهجوم الدفاعي ، اذا استعملنـــا التعبير البسيكولوجي .

فكثيراً ما يعمد الفريق المغلوب في ميدان ما ، وهو في اشد حالات الضعف والفزع ، الى مبادهة خصمه بهجوم خاطف ، يعتبر بالنسبة الى المهاجم وسيلة من وسائل الدفاع ، وواسطة لرفع ضغط خصمه الظافر عنه . فاذا كتب لذلك الهجوم شيء من الظفر ، اتخذ وسيلة لاسترداد زمام المبادهة ، ويؤدي بالنتيجة الى تحويل اتجاه المعركة تحويلاً تاماً .

وقد كان هذا شأن اوروبا في عهد الحروب الصليبية مع فاتحيها من العرب . اذ كان بعض كبار الطبقتين الدينية والاقطاعية جازعين من انتشار تلك السيادة الاجنبية في بلدانهم كما اسلفنا آنفاً . ولم يكونوا يعتمدون على نتائج الثورات المحلية ، والاشتباكات الاقليمية ، التي كانت تثار ضد اولئك الفاتحين في مناطق متفرقة ، وفترات منقطعة . كما لم يكن بامكانهم جمع القوى الاوروبية المتنازعة المتباعدة لخوض معركة تحريرية حاسمة في المناطق الاوروبية المحتلة ، لاسباب اوضحناها في الصفحات السابقة . لذلك لم يجدوا وسيلة لهم يتخلصون فيها من خطر امتداد الفتح العربي في الغرب ، الا استثارة تلك العاطفة الدينية التي يسهل استغلالها ، وتسديد الهجوم الى قلب البلاد العربية ، التي كانت بمثابة خزان تتدفق منه القوى المادية والمعنوية الى سائر الدويلات العربية في مختلف بقاع الارض . وكانت الغاية من هذه الخطة البعيدة الاهداف ، قطع موارد القوة والامداد عن الدول العربية القائمة بين ظهرانيهم ، ثم ايقاظ روح المقاومة العسكرية ضد العرب في نفوس الاوروبيين ، لتشدد البلدان المحتلة الضغط على حكامها الاجانب من جهة اخرى ، وتضاعف نشاطها الداخلي في المناطق المحتلة او المجاورة المهددة .

وقد اتت هذه الخطة بثمارها المنشودة . اذ سرعان ما تغلغلت الجيوش الصليبية في الشرق ، حتى انقطعت هجرة العرب الى المغرب والاندلس

بسبب انشغالهم في الدفاع عن مواطنهم الاصلية ، وحصل انقلاب تام في المعنويات اثر الانتصارات الصليبية الاولى . فبدأ التداعي يظهر في جميع الدويلات العربية في اوروبا . حتى آل الامر الى انتقال جميع القوى الاوروبية في الغرب ، الى هجوم عام ضد تلك الدويلات المتفرقة ، التي اخذت تنهار الواحدة تلو الاخرى . وبالرغم من تمكن العرب في الشرق من طرد الجيوش الصليبية في نهاية الصراع ، لم يعد باستطاعة عرب المغرب الوقوف في وجه الهجوم الاوروبي الداخلي . وما لبثوا ان خرجت فلولهم تجرر ذيل الهزيمة والانكسار من اوروبا ، وهم في حال اسوأ بكثير من حالة الصليبيين لدن خروجهم من فلسطين والسواحل السورية .

(ثانياً – البيزنطيون وسيادة الشرق) – عندما بزغت الدولة العربية الاولى الى الوجود كانت الدولة الوحيدة الغربية التي تنازعها السيادة هي الامبراطورية البيزنطية . لكن هذه الامبراطورية كانت تعتبر غربية بالنسبة للشرق ، وشرقية بالنسبة للغرب . ذلك لانها بالواقع توأم الامبراطورية الرومانية ، التي كانت مظهر سيادة الغرب في التاريخ القديم . وعندما ذر الانقسام الداخلي قرنه في هذه الامبراطورية العظمى ، اتجه البيزنطيون الى شرقي البحر المتوسط ، فانشأوا مملكة خاصة لهم ، وبنوا مدينة القسطنطينية ، لتكون عاصمة ملكهم الجديد هذا . فأخذت القسطنطينية تنافس روما بالعظمة والازدهار . وانقسمت الامبراطورية الرومانية بالنتيجة الى شطرين ، عرف الاول باسم الامبراطورية الغربية وعاصمتها روما . والثاني باسم الامبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية . ولما اجتاحت موجة البرابرة غربي اوروبا ،

وسقطت رومـــا في ايديهم ، اصبحت الامبراطورية البيزنطية منفردة بالسيادة والسلطان ، وكانت تشمل في حكمها مصر ، والسواحل العربية للبحر المتوسط كما هو معلوم .

لذلك عندما شرع العرب بتأسيس دولتهم المثلى على اساس الدعوة المحمدية ، كان لا بـد لهم من ان يدخلوا في نزاع السيادة والبقاء مع الامبراطورية البيزنطية منذ خطواتهم الاولى ، كما دخلوه مع الامبراطورية الفارسية بنفس الوقت ، وذلك لان هاتين الامبراطوريتين كانتا تسيطران على ثغور الجزيرة العربية الشرقية ، والشمالية ، والغربية . فكانتا بذلك على تماس مباشر مع الدولة العربية الناشئة في دائرتها الحيوية الاولى .

ولما بدأت موجة الفتوحات العربية الجبارة بشكل مروحة ، كانت جيوشهم في زحفها الظافر نحو الشمال والغرب ، لاتقابل غير القوات البيزنطية اوما يتبعها حكماً . فلم يستطع البيزنطيون الوقوف في وجه تيار الفتح العربي الا وراء جبال طوروس . واضطروا الى الانسحاب حتى من مصر وجزر البحر المتوسط كما هو معلوم . لذلك كانوا يرون الامبراطورية العربية منذ قيامها في الشرق ، كدولة غاصبة قامت على انقاض امبراطوريتهم العريقة . كما ان حلم الاستيلاء على القسطنطينية لم يزايل اذهان قادة الفتح العربي قط ، منذ عهد معاوية . فضاعف ذلك قلق البيزنطيين وحذرهم ، وجعلهم يتربصون الفرص للانقضاض على العرب في اية لحظة كانت ، بغية استرجاع ملكهم الضائع ، وتجديد مجدهم الدارس في الشرق . وكانوا يعتبرون مدن انطاكية ، ودمشق ، والاسكندرية ، وبيت المقدس ، دعائم رئيسية لامبراطوريتهم ، لهم في كل واحدة منها ذكريات تاريخية ودينية ، ولا تقل الواحدة منها اهمية عن القسطنطينية بالذات . شأنهم في ذلك شأن الصهاينة في نظرهم الى فلسطين ، وآثار مملكة سليمان ...

وعندما بدأ التفكك يدب في هيكل الامبراطورية العربية ، وتقسمت الى دويلات متعـــددة اراد البيزنطيون اغتنام الفرصة لتسديد الضربة ، وانتزاع المناطق التي يعتبرونها جزءاً متمماً لامبراطوريتهم ، وكان الامبراطور الكسيوس الاول اشد الطامعين الى تحقيق ذلك الحكم الذهبي . فاتصل باوروبا الغربية ، واستنفر البابا زعيم الكنيسة الغربية . فاتفق هذان اللدودان على ما بينهما من نزاع تاريخي واحقاد متأصلة . وكان اتفاق الكنيستين – الشرقية والغربية – من اكبر العوامل الفعـــالة التي ساعدت على تحقيق فكرة غزو الشرق لدى الاوروبية ، وحجر الزاوية في الحروب الصليبية . وهذا يشبه اتفاق الدول الاوروبية الكبرى في القرن التاسع عشر ، من روسيا حتى انكلترا ، على وجوب اقتسام « تركة الرجل المريض » ، ذلك الاتفاق الذي كان اساس التوسع الاستعماري الخبيث مجدداً في الشرق ، وبداءة « الصليبية الجديدة » التي نحن بصدد عرضها في هذا الكتاب .

(ثالثاً – الاطماع الخاصة) – بالاضافة الى هذه العوامل العامة التي حولت اوروبا الى بركان ثائر يغلي بروح الانقضاض على الشرق ، كان ثمة اطماع خاصة اشتركت في توسيع نطاق هذه الحركة ، وزادت اغراء بعض الامراء ، والجماعات من ابناء الطبقات الدنيا . وهي تعود الى حالة الضيق والفوضى والاستبداد ، التي كانت تعيش فيها اوروبا في ذلك العصر . اذ كان نظام الاقطاع واحتكار السلطة هو السائد ، فكان كثير من النبـــلاء ، والفرسان ، وحتى ابناء الاسر الحاكمة انفسهم ، يأنفون البقاء طول حياتهم تحت سيطرة امير واحد منهم . فيفتشون عن مغامرات يظهرون فيها شجاعتهم وكفاءتهم ، وايالات او مناطق منعزلة يستولون عليها وينشئون لهم فيها سلطة خاصة . ومن الطبيعي القول ان القارة الاوروبية لم تتسع لمثل هذه الاحلام . فرأى اربابها بالدعوة الصليبية التي

تدفع بهم نحو الشرق ، خير فرصة لتحقيق احلامهم وممارسة مغامراتهم هذه .

اما الشعب الاوروبي نفسه ، الذي كان يحكمه الملوك والنبلاء حكماً مطلقاً ، وينظرون اليه كالسوائم التابعة لارادتهم والمملوكة من قبلهم ، فقد كانت جماعات الطبقات الدنيا فيه تتوق الى الانفلات من قيود العبودية هذه ، وتشتهي الحياة في افق حر طليق ، تشعر فيه بكيانها الخاص . لذلك استهوتهم فكرة الاتجاه نحو الشرق تحت رايات الصليب المقدس ، لانهم كانوا يرون انفسهم سيحاربون من اجل هدف اسمى يطيب لهم الموت في سبيله ، حسب ما صورة تلك الدعوة لهم . وذلك خير من بقائهم تحت وطأة حكامهم المستبدين ، الذين يستغلون دماءهم في سبيل اطماعهم الخاصة . ثم كانت هذه الجماعات ترى ايضاً بهجرتها نحو الشرق -- ولو الى ميدان القتال - وسيلة تعيش حياة افضل من تلك التي كانت تحياها في ظل النظام الاقطاعي الاستبدادي الآنف الذكر ، من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

وما اشبه اولئك الامراء الصغار الذين استهواهم حب التسلط والفتح في عهد الصليبية الاولى ، فدفعهم للمساهمة في غزو الشرق ، بأصحاب رؤوس الاموال - المتوسطة الحال - وشركات الدرجة الثانية ، الذين ضاقت بوجههم اسواق الغرب المادية الكثيفة المكتظة ، فاندفعوا مع تيـــار الاستعمار الحديث ، « والصليبية الجديدة » يفتحون لأنفسهم في بلادنا أسواقاً جديدة تدر عليهم الربح وآفاقاً تخلو من المنافسة نسبياً .

وما اشبه تلك الجماعات من ابناء الطبقة الدنيا ، الذين انضموا الى جيوش الصليبية الغـازية بغية ارتفاع مستواهم الاجتماعي والاقتصادي ، بجماعات الشذاذ والنفايا التي تجمعهم موجات الهجرة الصهيونية الحديثـة و لتدفع بهم الى فلسطين ، حيث تعدهم بأن يعيشوا اسياداً ، ويصبحوا ارباب وجاهة ونفوذ .

هذه هي العوامل العديدة التي اشتركت في ايجاد حركة « الصليبية الاولى »، وانمائها وتوسيع نطاقها، وقد رأينا الكثير من التشابه بينها وبين بعض العوامل التي انبثق عنها التوسع الاستعماري الحديث، ولا نريد الآن ان نتبسط في المقارنة بين الحالتين، لان لهذا الغرض مقام خاص سيأتي في حينه .

موجات الغزو واهدافه

من البديهي القول اننا لانعنى في عرض تاريخ الحروب الصليبية عرضاً كاملاً في كتابنا هذا . ذلك لاننا اتخذنا تلك الحروب وما يتصل بها، موضوع مقارنة بين الماضي والحاضر فقط من جهة، ثم لان مثل هذه المهمة تستغرق الاسفار الضخمة لوحدها من جهة اخرى . لكنه لابد لنا الآن، بعد ان بسطنا العوامل الاساسية التي ادت الى هذه الحروب الكبرى، من ان نستعرض بمنتهى الايجاز، مجراها، وادوارها، وبعض المشاهد البارزة فيها .

امتدت الحروب الصليبية طوال قرنين كاملين من الزمن كما هو معلوم . لكنها رغم وحدة الغاية الظاهرية التي كانت تؤلف بين جميع ادوارها وحلقاتها، بفعل الدعاية المزخرفة لا بوحي العقيدة والايمان، لم تكن عملاً حربياً متحداً بمعنى الكلمة . بل كانت عبارة عن موجات غزو متقطعة، يجيش بها الغرب الثائر الطامع بين الفينة والفينة، فيدفعها نحو الشرق، اما لتعزيز ما سبقها من القوى المتمركزة، او لتوسيع رقعة الامارات الغربية التي تم انشاؤها، او للثأر من هزيمة، او ما شاكل ذلك من الاغراض .

ومن يتتبع تاريخ هذه الموجات الصليبية التسع، يرى الكثير من العجائب والغرائب في تكوينها، ومزاياها العسكرية، واهدافها، وسجل اعمالهـا . ويتأكد من صحة ما ذهبنا اليه من القول في الصفحات السابقة، بانها كانت ترتدي

طابع الجهاد المقدس في الظاهر فقط ، لتستر وراءه مطامع واهواء لاتمت الى المبادىء المثالية المنتحلة باية صلة . وها نحن نبين بايجاز بعض اخبارهـا ، التي تكشف عما انضوى تحتها من المتناقضات والمضحكات بآن واحد .

لم تكن الحروب الصليبية ترتدي طابعها الجدي بالواقع ، الا في الموجات الثلاثة الاول منها . ولا كانت تتجه نحو اهداف عامة تتفق مع الفكرة المثالية التي اثيرت لأجلها في غير تلك الفكرة الفترة المحدودة من تاريخها . وتعليل ذلك ان حملة الدعاية المنمقة التي اثارها قـادة الفكر في الغرب ، من كهنـة او سواهم ، كانت ذات قوة تأثيرية محدودة الامد . وان تلك الهالة المزخرفـة التي احيطت بها هذه الحركة العدوانية في ابتدائهـا سرعان ما تقلصت وذهب طلاؤها ، ولم يعد ثمة ما يخفي المطامع المادية وشهوات الفتح ، التي كانت تملأ صدور القادة الجـدد الذين استأنفوا مواصلة الحملات الصليبية المتأخرة . كما لم يعد اي رادع او وازع يكبح جماح روح الفوضى والنهب والتخريب ، التي كانت تسود بين جماعات الاوروبيين ، الذين لم ينضموا تحت رايات الصليبية ايماناً بمبادئها واهدافهـا السامية ، بل طمعاً بالوصول الى بلاد الشرق الغنية ، الوفيرة الخيرات ، ليعوضوا هناك عما كانوا يلاقونه من البؤس والحرمـان في مواطنهم الاصلية .

نعم ان تاريخ الصليبية الحقيقي ، من نواحيه السياسية والعسكرية ، بالنسبة الى الغرب والشرق بآن واحد ، يكاد ينحصر بالموجـات الثلاث الاول فقط ، ومدتها معاً اقل من قرن كامل . فالحملة الاولى التي زحفت من اوروبا عام ١٠٩٦ م كانت تمثل العالم الغربي بأسره اصدق تمثيل . اذ تولى قيادتهـا اعظم امراء اوروبا الغربية آنذاك ، امثال الكونت ريموند (امير تولوز) الذي كان يعتبر اغنى ملوك اوروبا،ثم الامير (غودفري) النورماندي ، الذي

اعترف له جميع زملائه بالزعامة الاولى نظراً لما اشتهر عنه من حسن السجايا وطيب السمعة ، ثم بوهيموند الايطالي الذي جمع حوله خيرة المقاتلين ، وبولدوين امير السكسون . كما انضم اليهم الكسيوس الاول امبراطور بيزنطه لدى وصولهم الى القسطنطينية . وباجتماع هؤلاء القادة العظام ، اصبحت القوى الاوروبية كلها متحدة تحت راية الصليب المقدس ، وكان زحفها من اوروبا ، فآسيا الصغرى ، اول هجوم عام يشنه الغرب على الشرق.

ولقد تمكنت هذه الحملة من تحقيق اعظم اغراض الصليبية على الاطلاق . كما حققت كثيراً من المطامع الاوروبية الاستعمارية في البلاد العربية . اذ بدأوا منذ خروجهم من تخوم المملكة البيزنطية بهجوم عنيف على ولاية (الرها) الواقعة على الحدود الشمالية لسورية والعراق ، والتي كانت تحت حكم السلاجقة الاتراك التابعين اسماً الى الخلافة العباسية في بغداد . فتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد صراع طويل ، وهزموا قوات السلاجقة في معركة عنيفة حاسمة . فكانت تلك الولاية اول غنيمة انتزعها الصليبيون من الدول الاسلامية . وكان انتزاعها ظفراً كبيراً للبيزنطيين بنوع خاص ، لانهم طالما كانوا يتوقون للاستيلاء عليها ، بغية اتخاذها مركزاً يشنون منه هجماتهم على العراق والشام بآن واحد . وطالما اشتبكوا فوق صعيدها بعدة حروب طاحنة مع الرشيد ، والمعتصم ، وآل حمدان ، الذين وقفوا في وجههم سداً منيعاً يحولون دون اجتياحهم للهلال الخصيب.

وبعد ان حقق الصليبيون هذا الظفر الاول ، الذي كان بمثابة ترضية لزميلهم امبراطور بيزنطة ، اداروا ظهورهم نحو الشرق ، واتجهوا الى الساحل السوري ، ليشقوا طريقهم الى فلسطين على طول ذلك الساحل ، وكان للمسلمين هناك امارات قوية على جانب كبير من المنعة ، اهمها امارتا

انطاكية ، وطرابلس ، اللتين استعصتا طويلاً على الصليبيين . فما كان من هؤلاء الغزاة الا ان ضربوا حول القاعدتين حصاراً محكماً ، وتركوا امام كل واحدة منها قوات كافية لتضييق الخناق عليهـــا ، واندفعوا يلتهبون حماسة وشوقاً الى رؤية قباب اورشليم ...

وكان العرب والمسلمون يقاتلون هذه الجيوش الجرارة المجتاحة ، متخاذلين متفرقين . لذا لم تجد المقاومات الجزئية نفعاً في ايقافها في اي مكان ما ، دون بلوغ اهدافها القصوى . فكان ان سقطت القواعد الساحلية واحدة اثر اخرى . وانهارت عدة امارات هزيلة كانت تباهي باستقلالها . ومنعت التفرقة اية قوة من القوى العربية والاسلامية ان تهب لنصرة اية شقيقة لها عندما تطبق عليها هذه الجيوش العربية اللجبة . فانتهى ذلـــك الزحف الصليبي الاول بان اقتحم الاوروبيون بيت المقدس ، مزهوين بنشوة الظفر ، مفعمين بروح الاعتداد بالنفس . ففتحوا تلك المدينة الخالدة عنوة ، واعملوا في اهلها الذبح والتنكيل ، حتى سالت الدماء فيها انهاراً بشهادة التاريخ ...

وهكذا ، بالاستيلاء على الرها (كيليكيا) ،وانطاكية ، والساحل الشرقي للبحر المتوسط باكمله ، ثم بفتح بيت المقدس وتحويلها الى عاصمة مملكة مسيحية شملت معظم انحاء فلسطين ، حققت الحملة الصليبية الاولى جميع اهداف الغرب . اذ حققت للكنيسة ـ ذات السيادة الاولى في اوروبا آنذاك ـ حلمها الذهبي المنشود بتحرير الاراضي المقدسة من ايدي اعداء الايمان (على حد تعبير رجالها) . وحققت للبيزنطيين مطامعهم باسترداد بعض معالم المجد المفقود في الشرق ، بانتزاع الرها وانطاكية من ايدي الخلافة الاسلامية . وحققت للامراء والفرسان المغامرين الاماني بانشاء عدة امارات لهم في البلاد العربية . كما حققت للموانيء التجارية الايطالية ـ خلفاء روما ـ اطماعها باسترداد سيطرة الغرب على

سائر سواحل البحر المتوسط . الى مـــا هنالك من الاحـلام . . . والآمال . . . والمطامع !!

وعندما تم هذا الظفر الحاسم للغرب على الشرق في تلك الحملة الكبرى ، بدأ العرب يستيقظون من سباتهم العميق ، ويستجمعون قواهم المبعثرة لمجابهة ذلك الخطر الداهم الذي اطبق عليهم اطباقاً كاملاً . فسرت رعشة البعث في الولايات الشمالية اولا . فقام امراؤها باول هجوم معاكس شنه العرب على الصليبيين . وكان هدف الهجوم مدينة الرها . فاستولى المسلمون عليها بعدنضال عنيف ، لا سيما وان الامراء الصليبيين في فلسطين وعلى الساحل السوري ، اطمأن كل الى ما في يديه من الغنائم ، ولم يتحركوا لنصرة البيزنطيين ، الذين اختلفت اهواؤهم عن اهداف الصليبية منذ اوائل الحملة الاولى .

لكن هذه الحركة العربية الجديدة ، كانت باعثاً لتجديد مخاوف قادة الرأي في اوروبا ، ومدعاة لتجديد حملات الدعاية والاستنفـــار . فانطلق رسل الكنيسة الغربية في شمالي فرنسا وشرقي نهر الراين ، يستصرخون ابناء تلك المناطق – التي لم تشترك في الحملة الاولى – الى تجريد حملة صليبية ثانية ، خوفاً من طغيان قوة العرب والمسلمين على الاراضي المقدسة من جديد . فهب لويس السابع ملك فرنسا بنفسه ، ثم كونراد الثالث ملك المانيا ، لتلبية تلك الدعوة ، وزحفوا هم وقوادهم بجيوش تحمل رايات الصليب ايضاً ، لم تكن اقل من الجيوش الاولى اهمية ولا اندفاعاً . واتبعوا طريق الحمــلة السالفة بالذات . فكان ان استردوا الرها وما جاورها من العرب ، وتابعوا زحفهم حتى بلغوا بيت المقدس . فازدادت قوى الصليبيين بذلك منعة واعتزازاً .

والطريف في تاريخ هذه الحملة ان ابطالها – وبعضهم من الملوك كما رأيت – حاولوا التوغل في سورية الداخلية ، وتوسيع نطاق السيطرة الاوروبيــة في

البلاد العربية .فهاجموا دمشق ، وحاصروها مدة من الزمن . لكن هذه المدينة العربية الجبارة ، استعصت على الغزاة ، فردت جموعهم خائبة مدحورة ، وكان ذلك اول انكسار معنوي تعرضت لها قوات الصليبين الرئيسية ، بل كان نقطة تحول هامه في تاريخ الحروب الصليبية بأسرها ، اذ اثار حركة رد فعل عنيفة تمخضت بها دمشق ، فغيرت وجه التاريخ . وانشقت غمرات تلك الاحداث الجسيمة عن ظهور بطل الساعة المرتقب . فاذا بصلاح الدين الايوبي يقف عند سفوح قاسيون التي عجز الفرنج عن اقتحامها ، وينشر لواء الجهاد لطرد ذلك العدو المغتصب لامن ولايته الخاصة فقط ، بل من سائر البلاد العربية بومتها . وما هي الا دورة من دورات الدهر ، حتى كانت اعلام صلاح الدين تحقق بين روابي حطين ، وساحل عكا ، وهضاب بيت المقدس . وفي اقل من خمس سنوات ، تمكن هذا البطل الخالد من ان يطرد اولئك الغزاة الدخلاء ، وان يهدم ما بنوه خلال قرن كامل تقريباً ، وقد افردنا لهذه الوثبة العربية الجبارة بابا خاصاً ، سيطالعه القارىء بعد الصفحات القليلة التالية .

واذا كانت حركة البعث الاولية التي ظهرت في الشمال قد الهبت اوروبا لتجديد الدعوة الى الجهاد كما رأينا آنفاً ، فغني عن القول ان مثل هذه الهزيمة الحاسمة التي مني بها الصليبيون على يد صلاح الدين ، واسترداد المسلمين بيت المقدس ، اقضت مضاجع الغرب وجعلته في حالة غليان لم يشهد لها مثيلاً من قبل . فأسفر ذلك عن تجريد حملة صليبية ثالثة ، ضمت اعظم قائدين عسكريين عرفتها اوروبا في القرون الوسطى ، هما : فردريك بارباروساً الالماني ، و « ريكاردوس قلب الاسد » الانكليزي .

انقسمت تلك الحملة الكبرى الجديدة ، بعد اتمام تعبئتها وترويج الدعاية اللازمة لها ، الى شطرين : (الشطر الاول) اتبع الطريق البري القديم عبر

شرقي اوروبا ، فالقسطنطينية فآسيا الصغرى . وكان على رأسه فريدريك الشهير . ولم يكتب له النجاح ببلوغ فلسطين وذلك بسبب وفاة قائده في الطريق . و(الشطر الثاني) الذي كان بقيادة قلب الاسد ، اتبـع طريقاً جديداً هو طريق البحر . اذ سار عبر غربي اوروبا ، ثم جنوبا حتى صقلية . فاجتمعت القوى والامدادات هناك ، ثم ابحرت الحملة رأساً الى السواحل الفلسطينية ، حيث القت مراسي الاسطول الكبير امام اسوار عكا .

واشتد النضال بين صلاح الدين وبين هذه الحملة الجديدة . وكانت الحرب سجالا بين الفريقين . فضيق العـــدو الحصار على مدينة عكا بوسائله البحرية الجديدة . فكانت هـذه الفترة هي ذروة الصراع في تاريخ الحروب الصليبية برمته . واضطرت قوات العرب الى التخلي عن هذه المدينة المنيعة . لكنه قدر ان يكون استيلاء الفرنجة على عكا ، هو الثمرة الوحيدة لحملاتهم الجديدة هذه . اذ ان صلاح الدين الذي كان قد عبأ قواه اتم تعبئة في كل مكان ، اخذ على العدو جميع السبل ، واحاط بسائر المنافذ . وكان كلما ظهرت من الصليبيين بادرة قوة ، بادرها هو بضربة مسددة قاطعة . مما احبط جميع خطط القائد الاوروبي الاكبر ريكادوس ، واضعف معنوياته . وبناء على اعجاب هذا القائد الشجاع بخصمه صلاح الدين ، ويأسه من نتيجـــة ذلك الصراع ، رغب ريكاردوس بانهاء الحرب والعودة الى بلاده على اساس صلح شريف . فتم له ما اراد ، وعادت مراكب الفرنجة اثر ذلك الى الغرب . فكان هـــذا آخر عهـد الصليبيين بالنصر في حروبهم الطويلة التي امتدت قرناً آخر بدون جدوى .

لكن ارباب الاهواء والمطامع الخاصة في اوروبا ، والمشعوذين والدجالين والمهووسين بالدعوة الى « جهاد مقدس » لم يشاؤوا ان يعترفوا بالهزيمة التي

اعترف بها كبار القادة والملوك . ولم يتحققوا بان ذلك الاسد العربي الذي استيقظ بعد سباته الطويل ، لم يعد ممكناً ان يغلب في عقر داره مرة ثانية . فجددوا النفير ، وواصلوا الدعاية والتهويل . وكانت نتيجة ذلك ان دفعوا بموجات صليبية مضحكة ، لا طاقة لمعظم افرادها بالحرب ، ولا خبرة لهم باساليب القتال . كما ان الاهداف التي كانت تتجه نحوها هـذه الموجات الجديدة ، اصبحت تختلف اختلافاً كلياً عن غاية الصليبية الحقيقية .

فمن احدى مضحكات الموجات الصليبية مثلاً ، حملة اطلق عليها التاريخ اسم « حملة الاولاد » ! جمعت احداثاً في سن المراهقة ، وبلغ عددهم عشرات الالوف . استولت عليهم اساليب الدعاية المضللة ، التي صورت لهم ان « ارض المسيح » تتطلب جيلاً جديداً من « الاحداث » يذهبون اليها ، فيستوطنونها ، ويصبحون هم اهلها الحقيقيون فيما بعد . فكانت حملتهم هذه اشبه شيء بآلاف الاطفال من اليهود ، الذين حملهم دعاة الصهيونيـة على الباخرة « اكسودس » في العام المنصرم ، مضللين بهم باسم العودة الى « ارض اسرائيل » .

وقد تحولت قصة « حملة الاولاد » هـذه الى مأساة تفوق مأساة الباخرة « اكسودس » اضعافاً مضاعفة . اذ اندس بين صفوفهم بعض الدجالين من ابناء قومهم ، فاستغلوا سذاجتهم ، وشردوهم كالقطعان ، فكان مصيرهم المظلم ان بيعوا عبيداً في اسواق النخاسة . كل ذلـك جرى باسم الجهاد المقدس والغايات المثلى ...!!

وهناك حملة ثانية من المضحكات ايضاً . هي التي جمعها البابا « انوسينت الثالث » بعد وفاة صلاح الدين ، وبذل منتهى الكياسة واللباقة للتأليف بين الامراء المتنازعين ، حتى تيسر له حشد قوة كافية للاقدام على مثل تلك المغامرة .

وكان معظمها يتألف من صغار الاقطاعيين الافرنسيين واعوانهم . وكانت هذه الحملة بجملتها ترتدي الطابع اللاتيني المحض .

لكن عندما بلغت هذه الحملة سواحل ايطاليا الشرقية ، راحت تنتظر المراكب اللازمة لنقلها الى فلسطين . وهنا برز تجار « البندقية » الى الميدان - وكان كثير منهم من اليهود - فأرادوا استغلال هذه الحملة لمصالحهم المادية الخاصة . فتمكنوا بعد مساومات عديدة من تحويل وجهة الحملة نحو شرقي اوروبا بدلا من تسفيرها الى البلاد العربية . واستخدموها هناك للقضاء على الموانيء المنافسة لجمهوريتهم الرأسمالية . ثم تمادى امر استغلال هذه الحملة ، التي اصبحت كسلعة بين ايدي الرأسماليين واصحاب المصالح ، فاستخدمت كاداة لفتح القسطنطينية عروس الشرق والغرب في ذلك الحين ، وذلك تلبية للرغائب والمطامع الخاصة . فكان ان سجلت صحائف سودا في تاريخ الحروب الصليبية ، يندى لها جبين اوروبا خجلا . اذ اعمل افرادها في عاصمة البيزنطيين النهب والتخريب ، وشوهوا الآثار التاريخيـــة ، واحرقوا المعابد الدينية ، مما لاغرض لنا بتفصيله .

ورغم هذه المآسي والفضائح ، التي ادت الى تشويه سمعة الحركة الصليبية في اوروبا نفسها ، لم يتراجع رأسماليو الموانيء الايطالية عن برامجهم المـــادية الجشعة ، التي عمدوا الى استغلال هـذه الحركة في سبيل تحقيقها ، وتسخير قوى « الجهـــاد الصليبي » لبسط سيطرتهم التجارية على اسواق الشرق الاوسط الغنية المزدهرة . وساعدهم على الاستمرار في خططهم هذه ، تشوق الاوروبيين الذين كانوا يعانون شظف العيش ، الى غزو الشرق بأية وسيلة كانت في سبيل الكسب المادي ، دون الاكتراث الى النتائج السياسية او الاهداف المعنوية . لذلك ارسلت عـدة حملات صليبية اخرى تحت اشراف

تجار البندقية وجنوه . وحشد في صفوفها حتى الشذاذ والمجرمون لعدم استيفائها النصاب اللازم من المجاهدين الحقيقيين . فلم يكترث رجال هذه الحملات المسخرة بالوصول الى فلسطين ، ولا باسترجاع الاماكن المقدسة ، ولا بتعزيز الحاميات الصليبية التي كانت لا تزال مرابطة على الساحل السوري – شماله وجنوبه – . بل اندفعت للسيطرة على طرق الملاحة العالمية . فنزلت على سواحل مصر ، وحاولت التوغل داخل البلاد . كما انصرف بعضها الى السيطرة على البحر الاحمر ، وكل ذلك في سبيل الاستيلاء على مفاتيح طريق الهند ، منبع التجارة العالمية في ذلك الزمن . هذا الطريق الذي كان عاملاً من عوامل تدعيم الاستعمار الغربي الحديث في الشرق العربي ، مما لا يخفى على احد ..!!

لكن روح اليقظة كانت قد تغلغلت عميقاً في نفوس العرب . كما ان الدويلات الاسلامية انصرفت الى جمع سائر قواها للقضاء نهائياً على الخطر الصليبي ، الذي كانت دعائمه الرئيسية قد انهارت من قبل على يد صلاح الدين الايوبي ، سيد الابطال وقاهر الفرنجة . فلم تكن تلك المحاولات العقيمة الآنفة الذكر ، الا لتزيد الصليبية ضعفاً على ضعف ، ولتؤكد بصورة جازمة ان الهزيمة التي لقيتها في حطين وبيت المقدس ، كانت هزيمة حاسمه ، ولا قيام لها من بعدها ...

نتائج الحروب الصليبية

اذا كان تاريخ الحروب الصليبية قد استغرق الاسفار الضخمة ، فان الكلام عن نتائجها المتعددة المتشعبة ، يشغل قسماً كبيراً من تلك الاسفار . فقد كان لهذا الصراع الطويل الأمد ، الذي احتدم بين الشرق والغرب طوال

قرنين كاملين من الزمن ، على اختلاف عوامله وادواره ، نتائج خطيرة للغاية ، مباشرة وغير مباشرة . وكثير من هذه النتائج ما ولد عفواً اثناء هذه الحروب وجزرها ، دون ان يكون احد من الفريقين قد هيأ اسبابه ، او تعمد الوصول اليه فيما وضعه من الخطط والمناهج .

لقد استقر الصليبيون في البلاد العربية بسبب هذه الحروب مئتي سنة ، لا تنقص الا قليلا . وهم وان عجزوا عن الاحتفاظ بالاراضي المقدسة في القسم الاكبر من هذه المدة ، فانهم ظلوا متمركزين على سواحل البحر المتوسط ، في الدويلات والامارات التي انشأوها ارواء لمطامعهم الجامحة ، وتحقيقاً للمصالح الخاصة الكثيرة ، التي كان يعدها بعض القادة منهم لا تقل اهمية عن احتلال فلسطين وانقاذ بيت المقدس . وكانت لهم قواعد منيعة على طول هذا الساحل اهمها عكا ، وصور ، وطرابلس ، وانطاكية . وكانت كل مدينة من هذه المدن عاصمة امارة تتمتع بشبه استقلال خاص ، يتفرد بالسلطان فيها احد الامراء الذي كان يعتبر مملكته الصغيرة هذه ، بمثابة حصة شخصية له من الغنيمة في ذلك الفتح الغربي للشرق . وكثيراً ما ظهر التقاطع والتنابذ بين هؤلاء الامراء والحكام ، حتى كان احدهم لا يخف لنجدة الآخر عندما تهاجمه قوى التحرر العربية ، مما يؤكد لنا تغلب روح المطامع الاستعمارية الخاصة على روح الجهاد المقدس المزعوم ، الذي كان اساس دعوة الصليبية الاولى . وتحول ذلك الاندفاع الغربي عن اهدافه العامة الى اغراض خاصة ، غايتها توسع استعماري بحت .

وكثيراً ما حاول الصليبيون المتمركزون على السواحل السورية التوسع نحو الشرق ، داخل البلاد العربية . وهذه سلسلة القلاع التاريخية ، التي اقاموها على مداخل سهول سورية الوسطى تنطق بتلك المطامع الاجنبية

الجياشة ، فمن قلعة « الشقيف » وراء ميناء صور ، الى قلعة « البلمند » وراء طرابلس ، الى قلعة « المرقب » وراء طرطوس ، الى قلعة المضيق وراء اللاذقية وغير ذلك من آثار التوسع الصليبي ،

واذا كان العرب تمكنوا من طرد الصليبيين نهائياً في آخر الصراع ، ودحرهم الى ما وراء سواحل البحر المتوسط غرباً ، ووراء جبال طوروس شمالا ، لكن هذه الغزوة الاوروبية الكبرى ، وما صادفته من النجاح العظيم في بدايتها ، وما آلت اليه من التوسع والتغلغل اسفرت عن نتيجتين صريحتين من النواحي العسكرية والقومية هما : (اولا) القضاء نهائياً على قوة الاندفاع العربي نحو الغرب ، مما ساعد مساعدة فعالة على انهيار الدويلات العربية في اوروبا حتى بعد هزيمه الصليبيين النهائية . (ثانياً) غرس بذور المطامع الاستعمارية في اذهان الشعوبية الاوروبية ، وتشجيعها على اعادة الكرة لدى اية فرصة مناسبة . مما جعل سياسة التوسع الاستعماري تصبح سياسة تقليدية لدى كل دولة اوروبية تبزغ فيها شمس النهضة القومية . كما ترك لدى بعض الدول التي اشتركت في تلك الفتوحات « مواريث تقليدية » يطالبون بها حديثاً مثل فرنسا ..!!

اما من جهة الاستعمار التجاري والاقتصادي ، فقد كانت النتائج اشد وادهى بكثير . فقد رأينا بوضوح في استعراضنا السريع لادوار الحروب الصليبية ، انه عندما اعترف ملوك الصليبيين وابطالهم ـ امثال ريكاردوس قلب الاسد وزملائه ـ بعدم تمكن اوروبا من تحقيق برنامجها الاستعماري في بلاد العرب عسكرياً ، وادارواظهورهم نهائيـاً نحو الشرق ، هبت طبقات « الرأسماليين » من ابناء الموانيء التجارية ، تلتقط علم « الجهاد » ... لكن ليس في سبيل انقاذ الاراضي المقدسة ، بل في سبيل اجتياح اسواق الشرق التي كانت

مدار التجارة العالمية آنذاك ، فراح هؤلاء يعبئون اساطيلهم للسيطرة على السواحل السورية والمصرية ، كما حاولوا التغلغل الى سواحل البحر الاحمر والسيطرة على طريق الهند . وقد كانت هذه الغزوات الفاشلة « عسكرياً » . هي مطلع عهد الرحلات الاستكشافية التي قام بها بحارة اوروبا في القرون الوسطى ، والتي ختمها كولومبوس وماركو بولو باعظم الانتصارات التي كونت تاريخ العالم في شكله الحالي ، والتي نشرت سيطرة القارة الاوروبي على مجموع الكرة الاوروبية .

لذا نستطيع ان نزعم جازمين ، بان الحركة الصليبية كانت هي فجر التوسع الاستعماري — التجاري والعسكري — لاوروبا في الشرق . وان البلاد العربية افترض فيها ان تكون هي الهدف الرئيسي لتمركز قوات هذا الاستعمار ، لا باعتبارها غاية بحد ذاتها فقط ، بل لاتخاذها عتبة لولوج بقية الاقطار الشرقية ، وقواعد لتأمين سلسلة المواصلات الامبريالية .

كما نستطيع ان نؤكد ايضاً ان حقيقة هذه الحروب لم تكن نزاعاً بين « الصليب والهلال » كما صورها قادتها في الظاهر ، بل كانت حلقة من سلسلة الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، في سبيل التسلط والتحكم . وان الاستعمار الاوروبي الحديث الذي نتجرع غصصه المريرة الآن ليس الا امتداداً لتلك الحروب ، وحلقة جديدة من ذلك الصراع . كما ان الحركة الصهيونية الجانية ، ليست الا جزءاً من برنامج الغرب الاستعماري ، وفصلاً اسود من تاريخ الصليبية الجديدة ...!!

وهناك نتيجة ثالثة — غير مباشرة — للحروب الصليبية ايضاً ، هي ظهور « النهضة » الاوروبية الحديثة . فقد كانت اوروبا عند ابتداء الدعوة الصليبية فيها ، تسبح في بحار الفوضى ، والجهل ، والفقر ، والتقهقر

الاجتماعي ، وانعدام وسائل الادارة والحكم . لكنها لم تخرج من الحروب الصليبية هذه – رغم هزيمتها عسكرياً فيها – ولم تعد آخر قوافل الصليبيين مدحورة من الشرق ، حتى بدأت انوار النهضة الحديثة ـ فكرياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، وقومياً ايضاً – تسطع في سماء اوروبا ، وهذا لا يحتاج الى تبسط في البحث ، او تعداد للادلة لان اسفار التاريخ تنطق صراحة بـه ، وتكفينا مؤونة التفصيل له .

اما تعليل ذلك فهو ان الجماعات الاوروبية الجاهلة التي دفعت الى البلاد العربية افواجاً افواجاً ، اندفاعاً اعمى باسم « الجهاد المقدس » لم تكد تستقر في هذه البلاد حتى فتحت عيونها على انوار الحياة الصحيحة ، ونعيم الحضارة المثلى . فأخذت تقتبس عن العرب دروساً في المدنيـة ، والعمران ، والزراعة ، والثقافة ، وسائر مظاهر الحياة الاخرى . وعندما رجعت الى بلادها ، شرعت بتطبيق تلك المبادىء المثالية . فأسفر عن هذا اللقاح الفكري العظيم ، ان اشرقت انوار النهضة الحدثة في اوروبا تلك النهضـة التي نقل العقل الاوروبي العملي بذورها من الشرق ، فوسع آفاقها ، وافتن في تنويع مظاهرها ، حتى آل الامر الى فرض سيطرة القارة الاوروبية على العالم بأسره ، بسبب هذه النهضة التي كان مصدرها الشرق ، فأصبح الشرق من بعض ضحاياها مع مر السنين ... !!

* * *

وهكذا انتهت الحروب الصليبية الى نتائج عكسية متضاربة . قـد يحار العقل في تقبلها . فهي وان آلت الى هزيمة الغرب هزيمة حاسمة في ذلك الصراع الطويل ، لكنها كانت سبب نعمة له يقطف الأن ثمارها . امـا العرب الذين احرزوا الظفر فيها ، فقد قدر لهم ان تكون مطلع عهد شقائهم ، وتمهيداً لهذا

الاستعمار الغربي الحديث الذي يعانون آلامه الآن . والذي نرجوه ان يكون اجماعهم على مقاومته والتحرر منه ، مطلع نهضة عامة شاملة تسمو بهم الى مدارج الرقي والنجاح ، كما كانت هزيمة الاوروبين في الحروب الصليبية الاولى سر نهضتهم التي مكنتهم من سيادة العالم باسره .

بين القديم والحديث

اذا كان غرضنا الاساسي من الكلام عن « الصليبية الاولى » في كتابنا هذا ، هو اتخاذ الماضي مرآة للحاضر ، بغية الاستفادة من المقارنة والمشابهة ، والقياس في الاسباب والنتائج ، فقد تبين لنا التشابه الكبير بين سياسة الغرب الاستعمارية المادية في القديم والحديث . كما امكن لنا ان نرى ان الغزو العسكري الاخير الذي شنته الدول الاوروبية على مختلف اجزاء الوطن العربي الاكبر خلال القرن الماضي ، وحتى القرن الحاضر ، لم يكن مبتدعاً او مستحدثاً في سياسة الغرب العدوانية ، بل كان تتمة لمحاولات سبقت ، هذا هو تاريخها وبيانها .

حتى ان التعلل بالاسباب المثالية ، بغية السيطرة على الرأي العام ، او اذكاء نار الحماسة في صدور الشعوب ، وبغية تبرير اعمال البطش والطغيان ، وتغطية المطامع المادية الجشعة بستار مزخرف من الاهداف السامية ، هذا الاسلوب الذي اصبح طابع السياسة الاوروبية الاستعمارية، نرى ان اسسه قد وضعت في عهد الصليبية الاولى كما تبين لنا ايضاً .

اما الصهيونية التي جاءت بدعة البدع في « الصليبية الجديدة » وشر خطر تعرض له العرب في صراعهم الحالي مع الاستعمار الاجنبي الحديث ، فهي وان كانت تبدو جديدة من حيث عنصرها ، وغريبة بسبب تبني اليهود لفكرة الاستيلاء على الاراضي المقدسة ، فهي ليست جديدة بدعواها واهدافها ، ولا غريبة

بأساليبها ووسائلهـا ودليل ذلك هو أن دعوى اليهود بحق العودة الى ارض اسرائيل ، لتجديد مملكة سليمان ، واحياء آثارهم الدينية والتاريخية الدارسة ، ليست سوى تقليد لدعوى الكنيسة الغربية السالفة التي هبت تستنكر سيطرة المسلمين على اراضي المسيحية المقدسة . وتستثير الشعوب الاوروبية لأجل الاستيلاء على فلسطين بالقوة ، لتأسيس مملكة مسيحية فيها ، وتخليص كنيسة القيامة المطهرة من ايدي (اعداء الايمان المسيحي) على حد التعبير القـديم . . . ! !

لكن الدول الاستعمارية الحديثة في اوروبا ، التي اصبحت « لادينيـة » بالواقع ، لم تكترث بتجديد تلك الحركة السالفة بين شعوبها هي لعلمها ان مثل هذه الدعوى لم تعد تسترعي انتباههم في العصر الحاضر لذا استغلت هذه الحركة القوية التأثير لدى الشعب اليهودي نظراً لما يعانيه هؤلاء من الكبت والحرمان ، وتسترت هي وراءها تصطاد بالماء العكر وتستفيد من الصراع القائم بين العرب واليهود لتحقيق مصالحها الاستعمارية على اكتاف الفريقين بل على دمائهم واشلائهم ايضاً . . .

فلولا مطامع دول الغرب الاستعمارية ، في بلاد العرب ، لما تسنى للحركة الصهيونية اقتحام فلسطين قطعاً . ولولا استمرار هـذه الدول نفسها بتغذية الدعوى الصهيونية مادياً ومعنوياً ، لما استطاع اصحابها الثبـات في وجه تيار قوى اليقظة العربية ، مهما زادوا في العدة والعدد .

وكأنما موقف الدول الامبريالية في اوروبا واميركا في وقتنا الحاضر ازاء اندفاع الصهيونيين نحو فلسطين ، لتأسيس دولة يهودية لهم فيها ، اشد مايكون شبهاً بموقف تجار جنوة والبندقية ، او حكام بيزنطه ، من الحملات الصليبية التي دفعوها لتقاتل لحسابهم ، وفي سبيل سيطرتهم على طرق التجارة العالمية ، وبعض

اجزاء البلاد العربية ، لكنهم تستروا باسم انقاذ الاراضي المقدسة في فلسطين، ليضمنوا استمرار روح الحماسة في نفوس تلك الجماهير المسخرة لمصالحهم ومطامعهم .

امـــا موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين ، من شرعية وغير شرعية ، ومسلحة ومسالمة ، فهي ليست شيئاً جديداً ايضاً . بل هي تشبه موجات الغزو الصليبي الاول تماماً ...

طبول الدعاية المضللة ، تقرع في كل صقع وناد . والرسل والدعاة ينبثون بين سائر الطبقات . فيجمعون السواد والغوغاء، والمتشردين والمجرمين ، والفقراء والمحاويج ، وحتى الاحـــداث والاغرار ايضاً ويسيرون بهم جميعاً ، باسم الجهاد المقدس ، وتحت رايات رمزية محببة ،وقيادات موثوقة ومحترمة . ويدفعون عنوة واقتداراً . فينزلونهم في فلسطين بقوة السلاح . ويحاولون ان يخلقوا من مثل هذه الجماعات البشرية المتباينة الاهواء ، شعباً جديداً يغير تاريخ هذه البلاد العريقة في التاريخ ، وطابعها القومي العربي الصحيح ، وسائر اوضاعها السياسية والعنصرية ، منكرين حقوق اصحابها الشرعيين ، ومستخفين بقدرتهم على المقاومة والنضال ...

واذا كان التاريخ سيعيد نفسه ، فاننا لن نخشى عواقبه البتة . لان العرب الذين دفعوا دول الغرب بأسرها في الماضي ، لن يعجزوا عن دفع هؤلاء الشراذم في الحاضر . واذا وقفت وراء الصهيونيه دول كبرى ، وامبراطوريات ضخمة ـ كما هو الواقع ـ فان هذا لن يخيفنا البته ، لانها هي التي وقفت في وجهنا من قبل ، فلم نعجز عن صدها وانتزاع وطننا من براثنها .

وستشهد الايام القريبة نتائج هذه الجولة الجديدة من صراع الشرق والغرب ...

الصليبية الاولى

٢ ـ حالة العالم العربي

التفكك الداخلي وتعدد الدويلات ـ يقظة بلاد الشام ـ ظهور صلاح الدين الايوبي ـ معركة التحرر الكبرى ـ النصر بعد الهزيمة ـ عبر ومقارنات .

عندما شنت اوروبا هجومها الصليبي الكبير على الشرق ، كان العرب في منتهى حالات الضعف ، والانهيار المعنوي ، والفوضى والاضطراب . اذ كانت الانقسامات الداخلية قد لعبت دورها الكامل في تمزيق كيان الامبراطورية العربية . فجزأتها الى عدة دويلات ، وامارات ، واقطاعات ، تنافس كل واحدة منها الاخرى ، ولا تعنى الا بالمحافظة على كيانها الخاص . كما كانت العناصر الطفيلية الطارئة قد طغت على جسم الامة العربية ، فانهكت قواها ، وذهبت بجذوة عصبيتها وشدة اندفاعها .

واذا اتينا الى ايجاز القول في مجمل هذه الحالة ، نجد ان كيان العرب في اواخر القرن الرابع الهجري (قبيل ظهور الحركة الصليبية) كان قد اصبح

ينقسم الى ثلاث خلافات : (الاولى) ، الخلافة العباسية ومركزها بغداد ، و (الثانية) ، الخلافة الفاطمية ومركزها مصر ، و (الثالثة) الخلافة الاموية في الاندلس . واذا صرفنا النظر عن الخلافة الثالثة لبعدها عن مواطن العرب الاصلية ، وبعدها عن ميدان الصراع الصليبي ايضاً ، نجد ان عرب المشرق كانوا منقسمين بين الخلافتين الاخريين : العباسية والفاطمية . وكان العداء مستحكماً بين هاتين الدولتين الشقيقتين مع الاسف ، والحروب لا تكاد تنقطع . مما هدد قواهما معاً بآن واحد ، وادى الى تلاشي روح التضامن والتآخي بين سكان البلدان التابعة لكليهما .

وبالاضافة الى هذا الانقسام الرئيسي الخطير ، فقد كان هناك عدد من الدويلات الصغرى في العراق والشام ، كان حكامها يدينون الى احدى الخلافتين المتنازعتين شكلاً ، لكنهم بالواقع يتفردون بالسلطة والادارة في منطقتهم عملياً ، ويسعون الى توسيع نطاق نفوذهم وبسطة سلطانهم الخاص ، بشن الغزوات على من جاورهم من الولايات ، سيان كانت تابعة للمرجع المركزي الذي يرتبطون به في الظاهر ، او لم تكن .

والى جانب هذه الانقسامات الادارية التي كانت عاملاً رئيسياً في تداعي كيان الامبراطورية العربية الكبرى ، كانت المنازعات العنصرية ـ وليدة الحركة الشعوبية ـ قد اسفرت عن وجهها ، واشتد امرها . فاضاعت هيبة العرب بنوع خاص وانتزعت من يدهم السلطة العليا ، كما ادت الى ضعضعة قوى الخلافة الاسلامية بوجه عام بسبب تعدد التيارات القومية المتنافسة ضمن نطاقها . ولعل هذه الناحية الخطيرة هي التي سهلت للغزاة الخارجيين اجتياح البلاد العربية ، اكثر من الانقسامات الادارية . لانها كانت اعمق اثراً في النفوس ، واشد وقعاً في تفريق الصفوف .

فقد كان الفرس من البويهيين والساسانيين هم اصحاب السيطرة على القسم الشرقي من الامبراطورية بما في ذلك العراق ، مركز الخلافة العباسية . وكانوا يتبعون سياسة العزلة التامة ازاء ما يتعلق بشؤون سائر الاجزاء التي تقع خارج منطقة نفوذهم . وهذا السر الذي جعل القوى العربية والاسلامية في العراق وما يتصل به ، لا تحرك ساكناً طوال مدة الحروب الصليبيّة . وكان الترك لاسيما السلاجقة ، قدظهروا في شمالي العراق وسورية ، واشتد امرهم ، ونضجت مطامعهم . فبدأوا يرسمون لانفسهم برنامج توسع خاص ، كما كانوا يعملون على ايجاد حركة انقلابية تغير جهاز الدولة الاسلامية بكامله ، وتجعل منهم وحدهم العنصر السائد ذا السلطان فيها . وفي حروبهم مع الصليبيين في الرها وانطاكية ، كانوا ينظرون الى هذا العدو الخطر من خلال مصالحهم الخاصة ، ويقاومونه في مناطق نفوذهم فقط . بل كثيراً ما كانوا يهادنونه ، او يتفقون معه سراً ايضاً ، ليتمكن من توجيه قواه نحومنافسيهم من رؤساء الدويلات الاسلامية الاخرى. ثم ان الخلافة الفاطمية كانت قد جلبت معها من المغرب بعض العناصر الغريبة ايضاً ، كما شرعت تجمع في مركزها الجديد في مصرعناصر جديدة من الروم والصقالبة ، ويخرج من تحت ستار دعوتها الخاصة ، جمعيات سرية كثيرة ، انبثت في اطراف العراق والشام ، ساعية للهدم لا للبناء كما هو معلوم . ورغم ان الغزو الصليبي كان قد اجتاح ممتلكات الفاطميين بنوع اخص ، الا ان بقاياهم في مصر ، بعد ما تأكدوا من ضياع فلسطين والشام من ايديهم ، وعجزهم عن صد الصليبيين ، راحوا يعقدون معهم المحالفات الخاصة ايضاً ، بغيـــة تعزيز مركزهم الخاص في البقية الباقية من اجزاء خلافتهم ، وبغية التخلص من بعض منافسيهم ايضاً . . .

هذه هي حالة العـــالم العربي ، عندما هاجمه الصليبيون بجموعهم الزاخرة ،

وروحهم الثائرة . متحدين تحت اعلام « الجهاد المقدس » مستميتين في سبيل انقاذ مناسكهم وآثارهم الدينية . فقابل العرب الاتحاد بالانقسام ، والحماسة بالجمود والفتور ، والاستماتة باللامبالاة . كل ذلك بسبب عوامل التفكك الداخلي التي اشرنا اليها اعلاه . كما يضاف اليه ايضاً ان الجيوش الاسلامية التي كانت تنتمي الى جميع الدويلات التي عددناها لم تعد تحارب باسم الجهاد وفي سبيل العقيدة واداء رسالة مثالية ، بل كانت قد تحولت الى جماعات من المرتزقة ، او عصابات من الشذاذ والفوضويين ، لاهم لهم الا تأمين معايشهم ، وارواء غرائزهم باعمال الفتك والتدمير . فبديهي ان لايستطيع العرب الصمود امام ذلك العدو المجتاح ، مع ما رأيناه من التباين في المعنويات والمبادىء . وطبيعي ان يخسروا الجولات الاولى ، ويتمايلون شعثهم ، كما حصل بالفعل .

يقظة بلاد الشام

كانت بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي بين مصر وبغداد ، ميداناً رئيسياً للنزاع القائم بين الفاطميين والعباسيين قبل الحركة الصليبية وفي بداءتها . كما كانت من قبل ذلك ايضاً مسرحاً للكثير من الحركات السياسية والثورية ، لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ، وجنوح معظم اهلها اصلاً لمقاومة العباسيين. لهذا ظهر فيها عدد من الامراء الذين استقلوا في الحكم ، وشكلوا لانفسهم دويلات مستقلة .

وعندما شرع الصليبيون بغزو بلاد العرب ، كانت بلاد الشام هي الميدان الرئيسي لهذا الصراع الكبير ؛ اولا لان هدف الحملات الصليبية كلها كان يرمي الى الاستيلاء على فلسطين ، التي تعتبر جزءاً من بلاد الشام ، وثانياً لان سائر الاجزاء الاخرى ، كانت هي الطريق التي يتحتم على الجيوش الغازية اجتيازه فور خروجهم من الاراضي البيزنطية .

وكانت بلاد الشام هذه – من حيث العرف الجغرافي في ذلك الحين – تشمل فلسطين ، وولاية دمشق بما يتبعها ساحلاً وداخلاً، وولاية حلب ، وولاية الموصل يتبعها سنجار والجزيرة العليا . فكانت بذلك تمتـد من حدود مصر حتى جبال طوروس ، كما تشمل شمالي العراق برمته ايضاً . وعندما حصل التصدع في الجهاز الاداري للدولة العربية ، وبدأت تظهر فيها الدويلات المستقلة العديدة، اصبحت هذه المنطقة الكبيرة المترامية الاطراف ، نهباً للمطامع من جميع الجهـات ، فكان كل قائد يغلب على امر مصر ، يبسط سيطرته على فلسطين وجنوبي ولاية دمشق . من عهـد الطولونيين ، والاخشيد ، حتى الفاطميين . وكانت ولايتا الموصل وحلب تتبع في الغالب السلالات حاكمة تحتفظ بولائها للخلفاء العباسيين في بغداد ، شكلاً على الاقل ، وبدافع منافسة الدويلات التي تقوم في المناطق الجنوبية ، والتي ترتبط مع امراء مصر او خلفائها . واشهر من ظهر من هذه السلالات (آل حمدان) الذين انجبوا «سيف الدولة» البطل العربي الشهير. اما امر المناطق الوسطى ، فكان يتجاذبها هـذان التياران المتنازعان بين مد وجزر .

وعندما استولى الصليبيون على فلسطين والسـاحل السوري برمته ، كانت تلك البلدان المفتوحة تابعة الى الخلافة الفاطمية في مصر . اما المناطق الشمالية – اي ولايتا حلب والموصل – فقد كانت تابعة للخلافة العباسية ، ولم يتعرض لها الغزاة الا جزئياً ، ما كان منها مجاوراً للحدود البيزنطية . لذلك حصل تخاذل كبير في صفوف العرب والمسلمين عن صد تيار الصليبيين عن فلسطين والمناطق الساحلية ، نظراً لهذا الخلاف الداخلي القـائم بين اجزاء البلاد . ولم يكترث العباسيون ولا عمالهم واعوانهم في البدء ، بمساعدة خصومهم الفاطميين على مجابهة هذا الخطر الخارجي الماحق ، بسبب تأصل الاحقاد الخاصة ، وعدم تقدير مايجره هذا الخطر من الذبول حتى عليهم في المستقبل .

لكن عندما تمركز الصليبيون في فلسطين ، وعلى السواحل ، وانشأوا لهم دولة مركزية قوية منظمة في القدس ، كما انشأوا القواعد الحربية المنيعة على طول الساحل السوري ، مثل عكا ، وصور ، وطرابلس ، وطرطوس ، وانطاكية ، لم يعد خطرهم محصوراً بتهديد الفاطميين وممتلكاتهم فقط ، بل انهم بدأوا يطمحون الى التوسع نحو الداخل ، كما اشرنا الى ذلك من قبل . وجردوا بعض الحملات على المناطق العربية الداخلية ، فبلغت احداها التي جاءت من عكا وشمالي فلسطين ، اسوار مدينة دمشق . كما اجتازت حملة اخرى نهر العاصي قادمة من السواحل الغربية ، فهددت حماه . لكن هاتين المدينتين ، وكل تاريخهما بطولة وفخار ، صدتا تلك الحملات الصليبية الغازية . كما ان صليبيي الشمال الذين كانوا في انطاكية والرها ، على تخوم مملكة البيزنطيين ، قاموا بحركات مماثلة في مناطقهم . كانوا يهددون فيها حلب والجزيرة ، ويوشكون ان ينفذوا الى ثغور العراق . لكن كان نصيبهم الفشل والتراجع .

على ان هذه الحركات المريبة ، اصبحت مدعاة لاثارة انتباه سائر امراء بلاد الشام ، والتخوف على مصائرهم الخاصة . لذلك ظهرت في هذه البلاد بوادر اليقظة ، وطغت فكرة صد العدو الاجنبي على كل غرض آخر . وكان السلاجقة في شمالي العراق وسورية هم اشد الدويلات الاسلامية المعاصرة قوة من الناحية العسكرية . فبدأوا بمناوأة الصليبين ، وانتزعوا منهم بعض المناطق الهامة . كما ظهرت سلالة حاكمة جديدة ، اسسها بالواقع بعض قواد السلاجقة الذين اطلق عليهم اسم الاتابكة . ومنهم عماد الدين زنكي المشهور ، الذي قدر له ان يكون اول بطل مسلم ، بدأ بتحرير البلاد العربية من الصليبين . اذ عندما وصل الى منصب الامارة في الموصل ، طمع الى التوسع والفتح ، ولكن على حساب العدو الاجنبي ، لا على حساب الدويلات الشقيقة . فانصرف الى جمع

شمل المسلمين في محيطه ، وعمل على توحيد قواهم لمحاربة الصليبيين ، العدو الاوحد للجميع . لكنه كان لابد له من القيام ببعض اعمال التطهير الداخلي . فآل به الامر الى جمع ولايتي الموصل وحلب تحت امرته ، وجعل منهما نواة مملكة فتية ناهضة تضطلع باعباء الجهاد المقدس ضد الاعداء الخارجيين ، وتقود نضالا عربياً تحريريـــاً بعيد المدى ، متصل الحلقات . فبدأ بمناجزة الصليبيين في الشمال ، فنكل بقواتهم ، وهزمهم في عدة معارك كبيرة ، واسترد منهم امارة « الرها » التي كان استردادها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ اول ضربة شديدة سددت الى الصليبيين في الشرق ، حتى انها سببت تجديد لدعوة الى استئناف تجريد الحملات الكبيرة من اوروبا ، خوفاً من عودة المسلمين الى السيطرة على الاراضي المقدسة .

وفي سنة (١١٤٦ م — ٥٤١ هـ) توفي السلطان عماد الدين زنكي رحمه الله في حلب . وخلفه ابنه السلطان نور الدين محمود . فاقتفى هذا سيرة والده في العمل على لم شعث المسلمين ، وتوحيد بلاد الشام ـ ولو بالسيف ـ في سبيل التمكن من طرد العدو الاجنبي المجتاح . فاتم مناجزة الفرنجة في الشمال حتى قضى على قوتهم هناك ، وفتح انطاكية بعد معارك شديدة تكبد فيها الصليبيون افدح الخسائر . وعندما تم له ذلك ، حول وجهه شطر الجنوب ، حيث قوى الفرنج الرئيسية ، ومركز ثقلهم ، ومصدر خطرهم الاكبر ، فاستولى على مدينة دمشق ، وجعلها قاعدة ملكه ، وبدأ منها بشن الغزوات على مواقع الصليبيين في الغرب والجنوب . وكانت دمشق في حوزته عندما جرد عليها الصليبيون حملتهم الكبرى تحت قيادة لويس السابع ملك فرنسا . وكونراد الثالث ملك المانيا فارتدت جموعهم خائبة كما اشرنا الى ذلك في حينه .

وعندما تسنى للسلطان نور الدين الاستيلاء على بلاد الشام بأسرها ، من الموصل حتى دمشق ، وطهر المناطق الشمالية من العدو ، وتمركز في دمشق

وجعلها عاصمة ملكه ، وقضى على محاولات الفرنج بالتوسع نحو الداخل ، انتقل زمام المبادهة في الحروب الصليبية الى ايدي المسلمين . وبدأ هؤلاء يجمعون قواهم للشروع بهجوم كبير عام ، يشبه هجوم الصليبيين الاول ، لتطهير جميع البلاد السورية من العدو ، ولاسترداد فلسطين بنوع خاص .

ظهور صلاح الدين الايوبي

لما قدم السلطان نور الدين الى دمشق ، جامعاً ما تيسر له من قوات المسلمين ، استعداداً لمناجزة الفرنجة ،كان يصحبه قائد من خاصته يدعى « ايوب ابن شاذي » . وكان من اهالي ولاية الموصل اصلاً ، ويرد المؤرخون نسبه الى الكرد . تقرب الى السلطان زنكي ، ثم الى ولده نور الدين . ولقي عندهما حظوة كبرى ، نظراً لما أنسا به من الامانة وحسن الصفات . وفي دمشق ، عقد له السلطان نور الدين لواء القيادة على احدى فرق العساكر . وعندما اطبق الفرنجة على دمشق في غزوتهم الكبرى لها ، كان القائد ايوب هذا ، من القواد الذين اشتركوا في الدفاع عن المدينة ، وابلى في ذلك بلاء حسناً استحق تقدير السلطان له ، فعينه اميراً على المدينة بأسرها .

وكان للقائد ايوب هذا آنذاك ، ولد صغير اسمه « يوسف » شهد ذلك المشهد التاريخي العظيم ، فامتلأت نفسه تأثراً بما رأى . ولم يكن احد ليعطي اهتمامه لهذا الحدث الصغير ، الذي قدر له ان يصبح اعظم شخصية اسلامية عرفها تاريخ الحروب الصليبية ، ويبلغ الى مركز السلطنة ويلقب فيما بعد بلقبه الخالد : « السلطان ابو المظفر صلاح الدين الايوبي » ...

نشأ صلاح الدين الايوبي في ظل السلاطين من آل زنكي ، الذين كانوا اول قوة اسلامية اعلنت الجهاد ضد الصليبيين ، وبدأت بمهاجمتهم وانتزاع

ما اغتصبوه من الاراضي العربية كما رأينا آنفاً . وفتح عينيه على الحياة العملية بين اسوار دمشق ، التي كانت تعج بسرايا الفتوح ، وتزدهر باعلام الجهاد ، التي كان هدفها الوحيد طرد العدو المغتصب حيثما وجد . وتولى ابوه قيادة حامية دمشق على نحو ما مر بنا اعلاه . كما كان عمه من قواد نور الدين البارزين ايضاً . فزاده ذلك صلة بمجرى الحوادث ، وايقظ في نفسه آمالا جسيمة ، وجعله على تماس عملي مباشر بمهام القيادة . فظل ملازماً لوالده بضعة عشر عاماً ، يتمرس في فنون الحرب ، ويعلم من امر الفرنجة اعداء بلاده ودولته الشيء الكثير . حتى اذا توفي والد صلاح الدين رحمه الله ، انتقلت القيادة الى عمه اسد الدين « شيركوه » ، وظل صلاح الدين ملازماً له كما كان مع ابيه .

ولما استتب الامر لآل زنكي في بلاد الشام ، وتوطدت دعائم دولتهم في سائر اطرافها ،وعجز الصليبيون عن مواصلة التعرض لهم ، صرف هؤلاء انظارهم عن سورية الى مصر ، وراحوا يسعون للاستيلاء على سواحلها ، واستخدام موانئها لنقل الامدادات لهم من اوروبا عن طريق البحر ، بعدما اصبحت طريقهم الشمالية مهددة ان لم نقل مغلقة .

وساعد الصليبيين على التمادي في خطتهم هذه ، فساد الامر في مصر آنذاك ، وانحلال جهاز الحكم ، بسبب مما آلت اليه الخلافة الفاطمية في اواخر عهدها من الانحلال والتداعي . اذ اصبح الخليفة صورة فقط ، وصار الامر بيد الوزراء والقواد . وكان اكثرهم من الطبقات الدنيا اصلا . فكثرت الفتن والدسائس ، وعمت الفوضى ، وتوالت الثورات والانقلابات ، مما جعل الجو ملائماً لكل غاز اجنبي . لذا هب الصليبيون لاغتنام الفرصة ، وبدأوا يعقدون الصلات بينهم وبين بعض القادة المتنفذين في البلاد ، الذين مهدوا لهم موطيء القدم على السواحل .

فشعر السلطان نور الدين زنكي بالامر ، وخشي اذا استولى الصليبيون على مصر ، ان يقوى ملكهم في بلاد المشرق ، لاسيما وهم يسيطرون على السواحل التي تسهل الاتصال لهم ببلادهم بحراً . فعقد النية على استصفاء امر مصر وسبق الصليبين الى الاستيلاء عليها ، قبل ان يهاجمهم في فلسطين والقوعد الساحلية الأخرى التي كانت بأيديهم . فاغتنم فرصة حدوث بعض الاضطرابات في البلاد بسبب منافسات قامت بين بعض المستوزرين . واتصل بأحد الفرقاء المتنازعين الذي استنجد به لتثبيته في دست الحكم ، فلبى السلطان نور الدين النداء . وارسل حملة من جيوشه الى مصر تحت ستار مساعدة ذلك الوزير المستغيث . وكان قائد تلك الحملة هو اسد الدين شيركوه — عم صلاح الدين — وكان صلاح الدين مرافقاً له بصفة ضابط عادي فقط ، وذلك عام ٥٥٨ ﻫ (١١٦٢ م) .

وكانت هي تلك الفرصة الذهبية المنشودة في تاريخ حياة صلاح الدين . اذ كشفت المهام التي انيطت به في هذه الازمة عما يكمن بين جنبيه من العبقرية في السياسة والادارة ، والشجاعة في القتال والمغامرة ، والحكمة والسداد في الامارة والقيادة . وكلما كانت الحوادث تتطور وتتجسم . كلما ازداد صلاح الدين شهرة في مصر والشام بآن واحد . حتى اذا جاء عام ٥٦٤ (ﻫ) تم صلاح الدين الاستيلاء على زمام السلطة في مصر برمتها . وفي عام ٥٦٧ توفي العاضد بالله آخر خلفاء الفاطميين ، فاعلن صلاح الدين الخطبة اذ ذاك باسم الخليفة العباسي الذي كان السلطان نور الدين يخطب باسمه في الشام ايضاً . وانضمت مصر بهذه الصورة الى سلطنة آل زنكي ، وعين السلطان نور الدين قائده صلاح الدين اميراً على مصر .

وبدأ صلاح الدين فور تقلده زمام الامارة بمناوشة الصليبين في مصر . فصدهم عن ثغورها . ومنعهم من النزول على سواحلها . ثم فكر بمهاجمة فلسطين

عن ذلك الطريق ايضاً . فعبر الصحراء ، وظهر على الصليبيين في عدة مواقع . لكنه اضطر الى الانسحاب بالنتيجة ، لعدم توفر القوة الكافية لديه في ذلك الحين .

وفي عام ٥٦٩ (هـ) ١١٧٤ (م) توفي السلطان نور الدين في دمشق . فذهب صلاح الدين من مصر ، وضبط ملك بلاد الشام باسرها لنفسه . وذلك نظراً لضعف خلائف السلطان نور الدين من اسرته . فجمع بين مصر والشام ، واصبحت مملكته الجديدة هـذه اوسع الممالك الاسلامية المعاصرة واقواها شوكة . كما اصبح يحيط بالصليبيين من جميع اطرافهم . وبهذا كان ثالث الابطال الذين تمخضت بهم بلاد الشام في يقظتها تلك التي آلت الى طرد الصليبيين في بلاد العرب ، والذين يؤلفون سلسلة متصلة متشابهة الحلقات : (الاول) عماد الدين زنكي ، الذي جمع ولايتي الموصل وحلب ، ووضع نواة الدولة الاسلامية القوية ، واعلن نفير الجهاد ضد الصليبيين من الشمال . و (الثاني) ولده نور الدين الذي جمع بين ولايتي حلب والشام ، وجعل مجموع القوى الاسلامية المتوثبة على تماس مباشر مع الصليبيين في اهم مراكزهم الحساسة . و (الثالث) صلاح الدين الايوبي الذي جمع بين الشام ومصر ، فاتم برنامج توحيد اكبر مقدار ممكن من القوى الاسلامية ، وتمكن بذلك من الانتقال الى الهجوم العام ، وجني ثمار النصر الحاسم المنشود ، كما سنرى ذلك فيما يلي :

معركة التحرر الكبرى

عندما ولي صلاح الدين ملك الشام ، بالاضافة الى ولايته على مصر ، اصبحت مملكته تعد اكبر الممالك الاسلامية في ذلك العصر . اذ تمتد من وادي النيل الى ما وراء الدجلة . فكان أجدر حاكم مسلم بحق للاضطلاع باعباء المسؤولية

العظيمة التي تصدى لها ، وهي طرد الصليبين من بلاد العرب وهذا ما عقد عليه النية . وما ورثه عن سلفية السابقين سلاطين آل زنكي .

لكنه لم يتيسر له النهوض فوراً الى مناجزة هذا العدو الخارجي ، بالنظر للمشاكل الداخلية التي اعترضت سبيله في اوائل حكمه . اذ ظهرت اضطرابات كثيرة في المملكة بعد وفاة نور الدين ، في شرقي حلب ، والجزيرة ،واطراف سنجار والموصل . سببها أن بعض الامراء من أسرة آل زنكي ، ظنوا انفسهم احق بالولاية العامة من صلاح الدين الايوبي ، بحكم الوراثة ، رغم عدم كفاءتهم لمثل هذه المسؤولية العظمى . كما أن بعض الامراء الآخرين طمعوا بامكان العودة الى الاستقلال ، والتفرد بالسلطان . فوق ذلك كله كان السلاجقة غير راضين عن تضخم مملكة آل زنكي اصلاً . فلما آل الامر الى صلاح الدين أخذوا يثيرون عليه الفتن والاضطرابات . لهذا اضطر صلاح الدين الى أن ينصرف زهاء عشرة اعوام في مقاومة منافسيه الداخليين . وقمع الفتن والاضطربات ، ليتسنى له بعد ذلك توجيه قواه الى محاربة العدو الخارجي .

ولم يحل عام ٥٨٠ هـ حتى كان هذا القائد العبقري قد تمكن من التغلب على جميع العقبات الداخلية ، وقضى على الانتقاضات الموضعية والنزعات الهدامة ، طوراً بالشدة والبطش ، وتارة بالسياسة وحسن الادارة . عند ذلك بدأ بتعبئة القوى الاسلامية باسرها لمناجزة الاعداء الصليبين ، واعد ما بيده من البلاد للوثبة الكبرى وخوض معركة التحرر الحاسمة .

وكما ان دعاة الصليبين اثاروا شعوبهم باسم الدين ، وصوروا لاتباعهم واعوانهم انهم انما يدعونهم الى خوض حرب مقدسة باسم « الصليب » ضد « الكفرة » المسلمين الذين اغتصبوا قبر المسيح ، فان صلاح الدين دعا من حوله الى اعلان الجهاد المقدس ، واستنفر المسلمين لاجل تحرير

اولى القبلتين وثالث الحرمين من ايدي مغتصبيها اعداء المؤمنين . وكانت هذه الدعوة هي الوسيلة الوحيدة آنذاك لاستنفار العالم العربي ، الذي بلغ به التفسخ والتفكك ما او ضحناه آنفاً . والذي اختلطت فيه الشعوبية ، وضاعت السيادة العنصرية ، وانحلت العصبيات القومية . لكن العاطفة الدينية تغلبت على كل نزعة سواها . ونفير الجهاد المقدس هز نفوس المسلمين طراً . وحرمة بيت المقدس واخبار ما ارتكبه الفرنجة فيها من الفظائع ، كانت خير حافز لدفع المؤمنين جميعاً الى السير تحت لواء الجهاد . ولقد اضيف الى هذا كله شخصية صلاح الدين الفذة ، التي عرفت كيف تجتذب القلوب ، وتوحي الثقة بالنصر .

وظل صلاح الدين يستنفر الناس ، ويعبيء القوى . ويجمع اليه الامراء والقواد لخوض معركة التحرر الكبرى ، زهاء سنتين من الزمن . حتى اذا اطمأن الى قوة جيشه وارتفاع معنويات اعوانه ، وانتظام الامور كما يشتهي ، خرج من دمشق في مطلع عام ٥٨٣ ، لخوض المعركة الفاصلة مع الصليبيين .

كانت خطة صلاح الدين في زحفه الكبير هذا ، هي مهاجمة الصليبيين في اقوى معاقلهم او التعرض لمركز الثقل من قواهم . فلم يتجه نحو القواعد الساحلية المتفرقة في الغرب ، بل يمم شطر الجنوب ، واضعاً نصب عينيه بيت المقدس هدفاً اساسياً لحملته المظفرة هذه . لكنه قبل ان يوغل بعيداً داخل الاراضي الفلسطينية التي يسيطر عليها الفرنج بجموعهم ، قام بحركة استكشافية بارعة ، واسعة النطاق ، تدل على بعد نظره ، ونبوغه في فن القيادة . اذ احب ان يستأنس الى سلامة طرق المواصلات مع مصر ، حيث يتوقع ان يستقدم الامدادات عند

الحاجة . وكان هذا الطريق يأتي من سيناء الى العقبة ، ويلتف من من وراء فلسطين الى الكرك ، ثم يسير في شرقي الاردن حتى حوران، وينحدر منها الى دمشق بكل امان . واضافة الى ان هذا الطريق حيوي جداً لجيش صلاح الدين لكونه طريق امداد ونجدة ، فهو ايضاً طريق الحج للمسلمين . وكان الصليبيون قد اقاموا لهم مخافر وقواعد وراء فلسطين تشرف عليه في عدة مواضع . لهذا سار القائد العبقري اول خروجه من دمشق ، بسرية قوية حسنة التجهيز . وانسلخ عن بصرى الشام ، حتى بلغ الكرك في جنوبي شرقي الاردن . وهي تقع على الطرف الثاني من بحر الميت ، مواجه بيت المقدس . فوجد ان الصليبيين اقاموا لهم حاميات قوية في تلك المنطقة تهدد هذا الطريق الحيوي الآنف الذكر بالخطر . فمزقها شر ممزق ، وامن على خطوط مواصلاته الخارجية هذه قبل الاشتباك مع العدو في المعارك الرئيسية .

وبعد ان حقق صلاح الدين هذا الهدف الثانوي – رغم اهميته – ارتد سريعاً الى دمشق . فأتم تعبئة جيشه الذي بلغ زهاء ثمانين الفاً حسب رواية المؤرخين المعاصرين له . فخرج من دمشق على طريق (القنيطرة) ثم انحدر الى بانياس ، حيث تم اجتماع القوى الزاحفة برمتها . وقرر دخول فلسطين مع مجرى نهر الاردن ، فسار بجيشه المظفر هذا على ضفة (الشريعة) اليمنى ، حتى بلغ بحيرة طبريا . فانحاز هناك الى غربي البحيرة ، وارتفع قليلاً الى الجبل ، واختار تلك المنطقة ميدانا لمنازلة الفرنجة في اول معركة رئيسية . فاتم ترتيب الخطة , ووزع الجيش ونظمه تنظيما محكما . وتحكم بالمواقع احسن تحكم ، وعين رابية حطين – المرتفعة عن سطح طبريا ارتفاعاً غير قليل – مكانا للملحمة

صادفت خطة صلاح الدين ـ او بالاحرى حيلته هذه ـ اعظم نجاح . وكان لاحكامها وحسن ترتيبها الفضل الاكبر في انزال الضربة المسددة القاصمة بالصليبيين التي قلبت ميزان الحروب الصليبية رأساً على عقب. ذلك ان الصليبيين عندما علموا بخبر زحف صلاح الدين لقتالهم ، بالغوا في الحيطة والاستعداد ، وحصنوا قواعدهم الرئيسية ، مثل عكا ، والناصرة أمنع تحصين ، ظناً منهم ان صلاح الدين سيبدأ بمهاجمتهم في احدى هذه القواعد . فلما نزل في تلك المنطقة التي كانت عديمة الاهمية شكلاً بالنسبة للافرنج ، واخذ يشن الغارات الصغيرة على طبريا وصفورية وما جاورهما من المواقع الضعيفة بقوات قليلة ، دون التعرض للمراكز الرئيسية ، استضعفوا امره ، وخرجوا لملاقاته في المكان الذي عسكر فيه ، ظناً منهم انه يسهل عليهم هزيمته في ذلك المكان ، فتكون تلك هزيمة حاسمة بالنسبة للمسلمين ، وتسلم جميع مدنهم من شر ذلك الزحف الاسلامي الكبير .

فخرجت حاميات عكا ، وحيفا ، والناصرة ، وطبريا نفسها ، للاطباق على جيش صلاح الدين . وكان كثير من قادة الفرنج في جنوب فلسطين والساحل قد خفوا الى عكا لتعزيز قوتها ودفع العدو عنها . فكان ان خرج الصليبيون اذن بمعظم قوتهم ، ليلاقوا معظم قوات المسلمين التي اجتمعت في « حطين » حيث شاء صلاح الدين ان تكون معركة الثأر الكبرى . ووصلت قوات الفرنجة بعدما جمعت شملها واحكمت تعبئتها في مرج صفورية ، الكائن بين عكا وطبريا . فلم يتعرض لهم صلاح الدين هناك الا جزئياً . بل استدراجهم صعداً في الجبل ، وأمر قواته التي كانت في طبريا ايضاً بالانسحاب سريعاً .

فظهر ذلك الانسحاب بشكل هزيمة . فخف الفرنج الى ركوب الخيل ، وتقفي آثار المسلمين في مدارج السفوح . وكان صلاح الدين – كما اشرنا سابقاً – قد نظم مواقع قواته كما يروم . فلما رأى انتشار جموع الصليبيين بين السهل والجبل ، اطبق عليهم من كل جانب . وبدأت الملاحم الضارية . وامتدت جبهة القتال من سطح بحيرة طبريا حتى رابية « حطين » ، حيث مقام النبي شعيب عليه السلام . واشتد القتال ايما اشتداد ، واستغرقت الملحمة الكبرى زهاء ثلاثين ساعة دون توقف . وبالنتيجة دارت الدائرة على الفرنج ، وتمزق جيشهم شر ممزق ، وأسر معظم قوادهم ، كما قتل بعض القادة في المعركة ايضاً . وكانت اعظم معركة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية ، لم ينتظم للفرنجة بعدها جمع كبير ، ولم يستطيعوا صد المسلمين عن موقع يهاجمونه . كما كان من نتائجها المباشرة ايضاً سقوط عكا ، والناصرة ، وحيفا وعدة قواعد هامة اخرى بدون قتال تقريباً ، لعدم وجود قوات فيها للدفاع ، لان معركة « حطين » استهلكت معظم حاميات هذه المدن ، وقضت على معنويات من بقي فيها .

وبعد هذا الظفر العظيم ، اصبح الطريق الساحلي الرئيسي الى بيت المقدس مفتوحاً في وجه صلاح الدين . كما لم يكن في داخل البلاد اي موقع هام للعدو يخشى شره فواصل سيره حتى استقر بجيشه المظفر غربي المدينة . وكانت الامدادات تترى لاسيما بعد ذيوع اخبار النصر . ولما حط الجيش رحاله امام تلك المدينة التاريخية نظم صلاح الدين خطة حصار القدس تنظيما محكما . وكان للصليبيين فيها قوة لايستهان بها . قدر المؤرخون عددها بزهاء ستين الف مقاتل . واختار صلاح الدين الجبهة

الشمالية من المدينة لتركيز معظم قواته امامها . وبعد حصار عنيف شاق ، استغرق زهاء ثلاثة اسابيع ، تمكنت قوات المسلمين من احداث ثغرة في الجدار الشمالي للسور . فتأكد الفرنج من عدم استطاعتهم مواصلة الدفاع ، لاسيما وهم لايرتجون مدداً ولامعونة من اي مكان آخر . ففاوضوا صلاح الدين على تسليم المدينة المقدسة صلحاً ، ليكون ذلك احفظ لحرمتها . فرضي هذا القائد الحكيم بذلك ودخلها في ٢٧ رجب عام ٥٨٣ ، المصادف ليلة الاسراء المباركة (١١٨٧ م) . وكان هذا الفتح الاعظم - اضافة الى قيمته المعنوية - ايذاناً بزوال ملك الصليبيين في بلاد العرب ، رغم احتفاظهم ببعض القواعد الساحلية ، ومواصلتهم الكر والفر وتجديد الحملات من اوروبا بغير طائل كما مر بنا قبلاً .

عبر ومقارنات !!

هذه مجمل حالة العالم العربي في عهد الصليبية الاولى . وهذه كيفية استرداد النصر بعد الهزيمة . عرضناها بقدر ما يقضي المقام من الايجاز . وهي تظهر لنا نواحي الضعف التي مكنت الجيوش الغربية الغازية من اجتياح بلاد العرب والتمركز في صميمها ، وانشاء الدويلات المتعددة في ارجائها . كما تبين ايضاً عوامل البعث الذي تم على يد صلاح الدين الايوبي ، وعناصره ، وادواره ، والنتائج التي آل اليها اتحاد بعض اجزاء الوطن العربي الاكبر بعد التفكك والتنازع .

ونحن لو دققنا النظر في حالة العالم العربي في عهد « الصليبية الجديدة » نجدها لا تختلف كثيراً عن الحالة السالفة بناحية من النواحي الاساسية . فان عوامل التفكك والانحلال التي كانت مسيطرة على البلاد العربية قبل الحرب العالمية الاولى ، وارتباطها بحكم مركزي هزيل

– واجنبي ايضاً !! – يرتدي شبح الخلافة الفضفاض في الظاهر ، هي التي مكنت الاستعمار الاوروبي الحديث من التغلغل والتمركز . كما ان عدم اتحاد قوى العرب في النضال والدفاع ، هو الذي افسح المجال للصهيونية الجانية – صنيعة الاستعمار الاوروبي الحديث – على التمركز في فلسطين قلب البلاد العربية . كما مكن تخاذل الدول الاسلامية في الماضي ، الصليبيين الاول من التمركز في نفس تلك البقعة المقدسة الغالية ثم نشر السلطة رويداً رويداً على سائر الاجزاء المجاورة ، وتحويل معظمها – لا سيما الساحل – الى امارات صليبية غربية ...!!

اما حركة البعث العربي التي نراها تنمو وتتسع بالوقت الحاضر ، فتجمع القوى ، وتوحد الشعور والمجهودات ، فهي الضمانة الوحيدة لنا لكسب الجولات الاخيرة من معركة صراع البقاء والفناء ، التي لا مفر لنا من خوضها للنهاية . كما كان اتحاد مصر ، وسائر اجزاء الشام ، وبعض اقسام العراق ايضاً ، تحت رايات البطل الفذ صلاح الدين الايوبي ، العامل الاساسي في طرد الصليبيين الاول من فلسطين ، ثم من سائر المناطق الساحلية التي كانوا يسيطرون عليها .

ولئن قدر لهذه الامة في الماضي بطل عبقري مثل صلاح الدين ، يجمع ما تفرق من شملها ، ويعبيء قواها المبعثرة تحت راية موحدة ، ويخوض سلسلة من الحروب الداخلية في بدء جهاده التحريري ، في سبيل توحيد زمام السلطة بيده قبل مهاجمة العدو الخارجي ، فاننا – مع عدم عقم امتنا بالقادة والابطال – نستطيع الاستغناء عن زعامة فردية موحدة ، بمنظمة قومية حديثة ، هي « جامعة الدول العربية » التي نرجو ان تتم على يدها المعجزة الجديدة ، وان توحد في ظلها جميع قوى العرب النضالية ، لكسب هذه المعركة الحاسمة .

فالى الاتحاد يا ابناء العروبة .

والى حومة النضال في سبيل البقاء .

فالمعركة حاسمة ، والمصير قاتم .

لقد جدد الغرب غزوه الاستعماري لبلادكم ووطنكم ، وهو متستر وراء الصهيونية الجانية هذه المرة ، لا وراء الصليب المقدس ...

فجددوا عهودكم الماضية بطرده ، وتحرير بلادكم من كل عاد ومغتصب . . .

فالتاريخ يفتح صدره ليسجل لكم هذا الظفر الجديد .

والاجيال القديمة ترنو اليكم لترى اعجوبة الاجيال الصاعدة .

فالى الامام : واطرقوا باب الحرية الحمراء حتى يفتح لكم ...

الفصل الرابع

الصليبية الجديدة

بدايتها في المسألة الشرقية – تحقيقها في الحرب العالمية الاولى – تصريحات اللنبي وغورو – الخطط الاستعمارية الحديثة – تقسيم الساحل السوري – فلسطين نقطة التمركز .

المسألة الشرقية

اوضحنا في الفصول السابقة ان الحروب الصليبية الاولى في القرون الوسطى كانت بمثابة رد فعل غربي ازاء ايغال الفتوحات في أوروبا . واذا اتينا الآن الى استقصاء الجذور الاولى للصليبية الجديدة التي نحن بصدد درسها في هذا الكتاب ، نستطيع ان نرى اتصالا وثيقاً بينها وبين « المسألة الشرقية » التي ظهرت في مطالع القرن التاسع عشر . ونقول بانها كانت بمثابة ثأر من الفتوحات العثمانية – الشرقية الاسلامية –

التي اوغلت في اوروبا مجدداً بعد عهد الصليبية الاولى ، وبعد اخراج العرب من آخر ممتلكاتهم الغربية ، فجعلت طرف الهلال الشرقي ، يدنو كثيراً من اقرب نقطة بلغها طرفه الغربي ...

نعم ان هذه المقايسة العامة تحتاج الى كثير من التدقيق والتبصر . لكنها بنفس الوقت تنطوي على كثير من الحقائق النسبية التي يسهل اثباتها . وليس لنا الان ان نذهب بعيداً في التدقيق في مثل هـذه النواحي الخاصة بل نكتفي بمجمل القول فيها .

وعلى كل حال ، فلا مجال للانكار بان « المسألة الشرقية » هي اساس التوسع الاستعماري الحديث ، وهي الصورة التي ظهرت مجسدة لمطامع الدول الاوروبية الرئيسية في الشرق . وانها بنفس الوقت قد جاءت مشابهة الحركة الصهيونية كل الشبه من حيث دعواها الاساسية ، التي تضمر خلاف ما تظهر ، ومن حيث الاسباب الانسانية ، والدعايات الدينية والعاطفية ، التي راحت تتذرع بهـا ، بغية تحقيق اغراض استعمارية وارواء شهوات ومطامع ذاتية .

ولم تكن « المسألة الشرقية » عند نشأتها تلامس البلاد العربية او تتعرض لها بصورة مباشرة . وما ذاك الا لان العرب كانوا قد فقدوا صفة المسيطر في الشرق ، واصبحت بلادهم برمتها خاضعة للحكم التركي الاجنبي باسم ثوب « الخلافة » الفضفاض . لذا استهدف ذلك الاندفاع الاوروبي الجديد كيان الامبراطورية العثمانية الرئيسي في اول امره . وكانت الممتلكات العثمانية في شرقي اوروبا هي الميادين الاولى لذلك الصراع .

ولقد كانت قوى الغرب كلها مجمعة ومتحدة على ازالة تلك الدولة الشرقية الاسلامية ، من القارة الاوروبية ، هذا رغم اختلافهم فيما بينهم

على اقتسام الغنائم وتوزيع تركة « الرجل المريض » كما هو معلوم . وكانت تلك الدول تتخذ الفكرة الدينية شعاراً لها في حركتها هذه ، ذلك لان الروح الدينية في ذلك العصر كانت لا تزال قوية مسيطرة ، لا سيا في شرقي اوروبا التي كانت هي ميدان الصراع الرئيسي . فصورت هجومها على الممتلكات العثمانية - حيثما كانت - انها سلسلة جديدة من حروب « الصليب - والهلال » . وكانت كل دولة منها تدعي اشفاقها على الرعايا « المسيحيين » الذين يقاسون الاضطهاد تحت نير الحكم التركي الاسلامي ، وتنتحل لنفسها صفة الحماية لأولئك الرعايا في جزء من اجزاء تلك الامبراطورية المتداعية ، لتتخذ هذه الحماية ذريعة للتدخل ، ثم السيطرة .

ولئن كانت الاقطار العربية ظلت في منجاة من ذيول هذه الحركة ردحاً من الزمن ، فهي تعتبر انها كانت مستهدفة من قبلها منذ بدايتها ، (اولا) لكونها جزء من الامبراطورية العثمانية المتداعية ، و (ثانياً) لان كثيراً من اقطارها واجزائها كان مشمولا ضمن الخطط الامبريالية لمعظم الدول الاوروبية الطامحة الى التوسع والفتح منذ زمن طويل .

ولم تبق تلك المطامع المقنعة بعيدة عن البلاد العربية طويلاً بل اقتحمت الساحل السوري الكبير ، بصورة مباشرة منذ ابتداء النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكانت نقطتا التمركز الرئيسيتين في ذلك التقحم الاستعماري البعيد الاهداف ، هما لبنان ، وفلسطين .

وقد اختلفت الوسائل في كلتا الحالتين مع الاسف . ففي حين اتخذت الدول الاوروبية حجة سدانة كنيسة القيامة في فلسطين سبباً لانشاء مؤسساتها المختلفة في تلك الديار المقدسة ، من سياسية ودينية ،

وتعليمية ، كان ولوج بعضها الى لبنان اكثر خزياً ، واشد ايلاماً اذ عمدت الى اثارة الفتن الداخليـة ، والاضطرابات الطائفية حتى انتحلت بواسطتها سبباً للتدخل السياسي ثم العسكري ، واقيم نظام دولي خاص في لبنان ، كان هو اول مدخل رسمي للدول الغربية لمد شباكها في سائر اجزاء البلاد العربية عامة ، وساحل شرقي البحر المتوسط خاصة .

وليس لنا ان نتوسع بالكلام عن هذه الاسباب البعيدة الآن ، ولا ان نتمادى بالاستطراد في البحث حرصاً على التقيد بجوهر الموضوع . لكننا لم نجد غنى عن التنويه بهذه العوامل لانها هي التي هيأت الاسباب المباشرة لجميع معضلاتنا السياسية القائمة الآن ، والتي علينا ان نتناول بعضها بأدق البحث والتفصيل .

في الحرب العالمية الاولى

في مطلع القرن العشرين – قرن الحضـارة المثلى – كانت المطامع الاوروبية قد ضاق بها النطاق ، واحتدم اوارهـا ، واشتد النزاع الداخلي والتنافس بينها . وهي وان اجتمعت على الاتجاه نحو الشرق ، فانهـا كانت تختلف على توزيع الاسلاب وخاصة على الاستئثار بحصة الاسد . لذا لم يحل عام ١٩١٤ حتى كانت طبخة الشر قـد نضجت في الغرب وعمدت جميع الدول الطامحـة الى امتشاق الحسام في سبيل المطامع الجسام .

وهنا اسفرت الصليبية الجديدة عن وجهها الصحيح واسرعت بنشر اغراضها المكتومة والمباشرة بتطبيق خططها المبيتة المرسومة . ولم تكن تلك الاغراض والخطط الا استعمار الشرق استعماراً فنياً منسقاً ، تارة باسم التحالف والصداقة ، وطوراً باسم الترقية والتمدين .

ودليل ذلك ان الدول المتحالفة اسرعت في وسط اوار الحرب الى عقد اتفاقات بينها على كيفية تقسيم ممتلكات الامبراطورية العثمانية –اي توزيع تركة الرجل المريض المحكوم عليه بالوفات – قبل ان كانت كفة النصر قد ترجحت الى احد الفريقين المتنازعين . فكانت ان عقدت معاهدة « بطرسبورج » الثلاثية الشهيرة في عام ١٩١٥ ، بين روسيا ، وانكلترا ، وفرنسا . تلك المعاهدة التي قضت باعطاء روسيا ما كانت تصبو اليه من المطامع التقليدية المتوارثة من عهد بطرس الاكبر ، والرامية الى بلوغ سواحل البحر المتوسط عن طريق السيطرة على المضايق ، هذا مع ضم عدد من الولايات التركية الشرقية والشمالية الى التاج القيصري ايضاً .

اما نصيب فرنسا وبريطانيا بموجب تلك المعاهدة ، فقد كان اقتسام البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية . ولم تقتصر هاتان الامبراطوريتان الاستعماريتان على ذلك الاتفاق الاجمالي فحسب ، بل عقدتا بينهما اتفاقاً ثنائياً خاصاً يفصل كيفية تحديد منطقة نفوذ كل منها تفصيلاً دقيقاً وافياً . وعرف ذلك الاتفاق باسم معاهدة «سيكس بيكو» المشئومة التي عقدت عام ١٩١٦ . فكان نصيب فرنسا بموجبها الاستيلاء على سوريا ولبنان ، وكان نصيب انكلترا فلسطين والعراق . واصطلح الفريقان على اقامة « دولة او دول عربية » في « المنطقة الشرقية » اي ما وراء السواحل ، ينظر في امر تنظيمها في حينه . وامر هـذا التقسيم اصبح مشهوراً لا يحتاج الى تفصيل .

ظل سر هذه الاتفاقات مكتوماً طوال مدة الحرب لا سيا عن العالم العربي الذي كان يسير وراء سراب براق ، واحلام معسولة ، مصدرها وعود مطاطة جوفاء قطعها الحلفاء لقادته وزعماء الحركات التحريرية فيه ،

بدافع التغرير والتخدير . حتى دخل جيوش الحلفاء الى البلاد العربية في آخر سني الحرب ، فهبت الشعوب العربية على اختلاف اقطارها تستقبل تلك الجيوش بصفتها جيوش حليفة عملت على اجتناء نصر مشترك .

لكن طلاء السياسة الكاذب ما لبث ان انكشف عن المخازي الاستعمارية الحقيقية اذ سرعان ما هب قادة تلك الجيوش « الحليفة » الى الاعلان عن انفسهم انهم غزاة فاتحون لا حلفاء محررون . وان ظفرهم الذي احرزوه ، هو ظفر صليبي جديد يحرزه الغرب على الشرق ، لا فوز للمبادىء الديمقراطية المستندة الى حق تقرير المصير ، على الاحكام الاستبدادية التي لا تراعي للشعوب الصغيرة حقاً في الحرية والاستقلال .

ولم يبق هذا الامر محصورا في حدود النظريات والاستنتاجات . بل ان الجنرال اللنبي عندما دخل القدس فاتحا ، في اواخر ١٩١٧ وارتدى في دخوله الشخصي الى تلك المدينة المقدسة طابع الورع والتصوف ، ما لبث ان نطق بعبارته الشهيرة قائلا : « الان انتهت الحروب الصليبية » . كأن هذا القائد الاوروبي تصور نفسه آنذاك جاء متمماً لحملة مليكه القديم « ريكاردوس » « قلب الاسد » لا لأداء رسالة العدالة والمساواة بين الشعوب ، تلك الرسالة التي كان الحلفاء يبشرون بها الشعوب الصغيرة طوال مدة الحرب . والتي شاركهم العرب في حملها في وسط اوار الحرب ايضاً .

وتأبى ملابسات السياسة الغربية وتناقضاتها ، الا ان تجعل ذلك الفتح الصليبي الجديد للديار المقدسة ، يتمخض عن شر مستطير ، وخزي يندى له جبين التاريخ ، حتى تاريخ الصليبية الاولى . ذلك ان هذا الفاتح الورع ـ الجنرال اللنبي ـ بعد ان تم له النصر ، واستقر

به المقام في فلسطين جاء ليعلن الى ابناء تلك البلاد رسالة جديدة كلف باذائها ، وكشفت عن اغراض حملته الحقيقية القصوى .

ففي شهر نيسان عام ١٩١٨ ، دعا الجنرال اللنبي اليه – بصفته حاكما عاماً – زعماء العرب في فلسطين ، ورؤساء المنظمات الصهيونية ، الذين دخلوا البلاد مع جيوش الفتح الحليفة الى مأدبة كبرى في منزله في القدس . وفي ذلك الاجتماع التاريخي ، اعلن ممثل التاج البريطاني لاول مرة ، نص وعد بلفور المشؤوم ، الذي تعهدت الحكومة البريطانية بموجبه انشاء وطن قومي للصهيونيين في فلسطين . فكان ذلك الاعلان مفاجأة عنيفة للعرب الذين كانوا لا يزالون ينسجون خيوط الاحلام البراقة . ويعللون بالوعود المعسولة . فانسحب ممثلوهم من الاجتماع احتجاجاً على ذلك التصريح البريطاني .

وجاءت هذه الحادثة تفسر عبارة الجنرال اللنبي التي اوردناها آنفاً بان تلك الحملة الصليبية الجديدة – مع الاسف – لم تكن في سبيل انقاذ مهد المسيح ، ولا نشر مبادئه السمحاء ، بل هي تطوع من بريطانيا العظمى لخدمة مطامع الصهيونية الجانية وتسليم تلك الاراضي المقدسة – لدى النصرانية والاسلام على السواء – الى اليهود اصحاب التاريخ الاسود المعروف ازاء الرسالات السماوية على اختلاف انواعها ، واعداء المبادىء الانسانية الروحية مهما كان مصدرها . ومضطهدي المسيح ورسالته بنوع خاص .

وهنالك حادث رمزي آخر ، يثبت لنا روح « الصليبية الجديدة » الحقيقية في القرن العشرين كان مسرحه في هذه المرة دمشق ، لا بيت المقدس . وذلك انه في عام ١٩٢٠ ، بعد ان اتفقت فرنسا وبريطانيا

تهائياً على اقتسام الغنائم ، ونفضت الثانيـة يدها من العهود والوعود المقطوعـــة للعرب ، بعد مؤتمر سان ريمو الشهير الذي اقر انتـداب هاتين الدولتين على الاراضي المنسلخة عن المملكة العثمانيـة ، فقررت فرنسا انزال ضربة الغدر الحاسمة بالدولة السورية الفتية التي تأسست في دمشق غب الحرب الاولى ، والتي كانت هي الثمرة الوحيـــدة لثورة العرب التحريرية العامة . فدفعت بجحافلها من الساحل بعد سلسلة من المفاوضات الكاذبة والألاعيب المفضوحـة ، وكانت مأساة « ميسلون » الكبرى التي جاءت وليـدة الاستسلام الى الاحلام ، ونتيجة التفكك السياسي وعدم التنظيم القومي . فوجد الجنرال غورو طريقه الى دمشق التي استعصت على الصليبيين الاول ، مفتوحة سهلة ، ودخل الى العاصمة السورية مزهواً بظفره الهزيل ، متماديا بالعتو والغرور . فما كان من هذا الفاتح « الحليف » الا ان اسرع الى ضريح سيد الابطال وقاهر الفرنجـة (صلاح الدين الايوبي) ووقف في حرم التاريخ يقول بدون خجل « أرأيت يا صلاح الدين ؟... هانحن قد دخلنا الى دمشق » .

عبارة ارسلت من فم قائد أرعن ، لترن في مسمع الاجيال ، وتعود بالذاكرة قليلاً الى الوراء فتمتزج بعبارة زميله السابق الذكر . الذي قال عند دخوله بيت المقدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ان كلتا العبارتين ، تصدران عن روح واحـدة ، وتستهدفان غاية واحدة ، اذ تؤكدان لنا ان دول الغرب ظلت حتى الوقت الحاضر تعتبر ان الحروب الصليبية السابقة لم تنته بدحر الاوروبيين الغزاة من الشرق آنذاك ، وعودتهم الى بلادهم خائبين . وان اوروبا منذ ذلك

الحين تفكر بتعبئة جديدة ، لأعادة الكرة . وان هؤلاء اعتبروا الحرب العالمية الاولى فرصة لهم لاجتياح الشرق من جديد ، واعادة سيطرة احفاد الصليبين الاول في نفس الامارات والدويلات التي انشأوها منذ تسعة قرون خلت ، على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ...

على انهم في هذه المرة ، عوضا من ان يحملوا معهم جموعا من المسيحيين المؤمنين ، الذين ارادوا التقرب الى الله بسدانة قبر المسيح ، ورغبوا الاستيطان في تلك البلاد المقدسة التي هي مهبط الوحي ومصدر الرسالة السمحاء ، حملوا معهم جموع الصهيونيين اليهود ليضمنوا لهم الاستيطان بقوة السلاح ، وليجدد هؤلاء دولتهم الطاغية الباغية التي اضطهدت المسيح واعوانه واتباعه ، ونشروا في بلاد الوحي والرسالات المثالية مبادئهم الهدامة ، وتعاليمهم التي تنكر كل رسالة سامية .

لكن ذلك الحلم الكاذب الذي تراءى للقائدين الحليفين : اللنبي ، وغورو ، بان الحروب الصليبية قد انتهت بظفرهما الموقت ، كانت نتائجه معكوسة تماما . اذ ان هذا الفتح الاوروبي الجديد ، الذي تقمص الروح الصليبية من جهة ، وحمل في طياته مطامع استعمارية اشد وادهى من جهة اخرى ، كان نذيرا بانطلاق جذوة حرب جديدة بين الشرق والغرب ، وبين العرب والفرنجة ، هي بالحقيقة معركة التحرر الحاسمة وصراع الحياة او الموت بالنسبة للعرب قاطبة . هذه المعركة التي تجمعت اسبابها من ايام اللنبي وغورو ، واحتشدت عناصرها في فلسطين مرة ثانية في التاريخ ، وها نحن نبصر بوارقها الاولى بدأت تلمع في الافق الان .

الخطط الاستعمارية الحديثة

الاستعمار الغربي الحديث متشعب الاهـداف ، متعدد الاغراض ، بعيد الخطط والاغوار . لكنه على كل حال يقوم على اساس السياسة الاميريالية ، التي تهتم بتأمين حلقات متصلة من القواعد الرئيسية ، وتعنى بحماية طرق مواصلاتها العالمية سيان كانت عسكرية ام تجارية . كما تتنافس في السيطرة على بعض العقـد الستراتيجية الهامة ، استعداداً لاوقات الحرب التي لا تسقط ابداً من حساب الدول المستعمرة . ولهذا السبب كان ساحل سوريا الطبيعية ، الممتد من خليج الاسكندرون حتى قناة السويس . مطمح انظار الدول الاوروبية الكبرى منذ عهد بعيد ، بغية اقامـة القواعد العسكرية عليه واستخدام موانئه لترويج تجارتهم العالمية ، وللتحكم قدر المستطاع فيما قد ينشأ من جبهات حربية في البحر المتوسط ، الذي لا تقع حرب عالمية قط الا ويصبح احـد ميادينها الرئيسية .

واستولت فرنسا وبريطانية بعد الحرب العالمية الاولى على هـذا الساحل العربي الكبير باستيلائهما على سائر البلدان العربية كما هو معلوم . فانصرفتا بنوع خاص الى الافتنان بتطبيق الاساليب الاستعمارية الحديثة فيه ، واحداث خطط ومناهج جهنمية لم تشهد البلاد العربية لها مثيلاً . وهـا نحن نحاول استعراض تلك الخطط بقدر ما يسمح لنا بـه المقام من الايجاز :

اولا ـ التقسيم والتجزئة :

اول ما شرع به هذا الاستعمار الغربي الحديث من الخطط المنسقة ،

كان فصل الساحل عن الداخل ، على نحو ما فعل الصليبيون الاول رغم اختلاف الاسباب والغايات في الحالتين . فقد كان الصليبيون الاول عاجزين عن اقتحام البلاد السورية الداخلية لعدم تفوقهم العسكري التام . اما فرنسا وبريطانيا فقد سيطرتا حتى على تلك البلاد الداخلية . ومع ذلك فقد راعتا سياسة الانفصال والتجزئة بين الساحل والداخل ذلك لانها ارادتا حصر ثقلها العسكري في القسم الساحلي على الاكثر ، كما ان اغراضها الاستعمارية الرئيسية كانت تحوم حول المناطق الساحلية نظراً للاسباب التي عللناها في كلامنا عن تطور اساليب الاستعمار الحديث.

لذا اصبح الساحل السوري الكامل ، في حالة انفصال عن بقية اجزاء البلاد الداخلية تقريباً وكان من جراء ذلك ان وجد بعض التفاوت الموقت - المصطنع والمعتمد في اكثر الاحيان - بين هاتين المنطقتين المتحدتين دماً وجنساً وتاريخاً وطبيعة ايضاً ، كان المستعمر يسعى حثيثاً لايجاده في سبيل تقرير خططه الانفصالية وتحقيق مبادئه الخبيثة التي ترمي الى السيطرة الدائمة على المنطقة الساحلية . لذا راح يحصر مجهوده الانشائي والعمراني في المناطق الساحلية ، وكان يخصها بوسائل الترفية والانعاش المادي قدر الامكان ، كما اتخذها مقراً لمعظم مؤسساته وبعثاته من سياسية واقتصادية وعلمية ايضاً .

ولم تقتصر السياسة الاستعمارية على فصل الساحل عن الداخل فقط ، بل عمدت الى المنطقة الساحلية نفسها ، وامعنت فيها تقسيما وتجزئة ، على نحو ما فعل الصليبيون الاول ايضاً ولكن لاسباب وغايات تختلف بالطبع . فعدا عن قسمة هذا الساحل المنكود الحظ الى شطرين بين فرانسا وبريطانيا ، فقد عمدت الاولى الى اجراء تقسيم جديد في شطرها الشمالي ايضاً .

اذ بالاضافة الى دولة لبنان الكبير التي تكاملت حتى اصبحت جمهورية تامة السيادة والاستقلال ، والتي تتمتع اليوم والحمد لله بمركزها اللامع في جامعة الدول العربية ، وتشترك في تعبئة قواها مع سائر القوى العربية المجتمعة لانقاذ فلسطين وكسب معركة التحرر الحاسمة ، انشأت فرانسا على الساحل دويلات هزيلة مصطنعة ، اتماماً لعملية التقسيم والتجزئة ، وذلك بأنها عندما اعترفت بتشكيل « الدولة السورية » في عام ١٩٢٤ ، فصلت عن تلك الدولة الهزيلة لواء الاسكندرون وبلاد العلويين . فجعلت الاول لواء تابعاً لحكومة دمشق المركزية شكلاً ، لكنه يتمتع باستقلال اداري واسع النطاق ، بما جعله منفصلاً انفصالاً تاماً فعلياً عن كيان الدولة السورية . ولم تكتف بذلك فقط ، بل عقدت مع الحكومة التركية اتفاقاً ينص على وجوب اعادة النظر في وضعية ذلك اللواء فيما اذا تخلت فرانسا عن انتدابها على سورية مما فتح المجال امام تركيا لاغتصابه في عام ١٩٣٦ ، تلك المأساة التي لن ينساها اي سوري او عربي قطعاً . اما منطقة العلويين ، وهي الشقة الساحلية الممتدة بين حدود لواء الاسكندرونة وحدود الجمهورية اللبنانية ، فقد انشأت فيها دولة « صورية » لاتتمتع حتى بأي مظهر من مظاهر الحكم الوطني ، بل تقع تحت الحكم الافرنسي المباشر ، ويسوسها مجموعة من الضباط العسكريين اصحاب السلطان المطلق .

وفي الوقت الذي كانت فرانسا تمعن في الساحل السوري الشمالي تمزيقاً وتشويهاً ، كانت انكلترا في الساحل الجنوبي تقوم بمهمة تحقيق وعد بلفور ، وصك الانتداب الذي يشترط تحقيق ذلك الوعد ايضاً . لذا كان اليهود يجدون في تحقيق انشاء وطنهم القومي المنشود فينشؤون

المـدن الصهيونية الكبرى حول الموانىء الرئيسية ، ومئات القرى والدساكر والمستعمرات التي غمرت السهول الزراعية الهامة ، والتي كانت تعتبر منذ تأسيسها نواة « الدولة اليهودية » العتيدة التي يحلمون فيها من البداية والتي يسعون لاظهارها كحقيقة واقعة الآن .

وعلى هذا النحو لم يمض اكثر من ١٥ سنة على انتهاء الحرب العالمية الاولى ، حتى كانت جميع « الدول الصليبية » قد بعثت مجدداً في بلاد الشرق ... فعوضاً عن ممالك انطاكية ، وطرابلس ، وصور ، وبيت المقدس في القرون الوسطى ، ظهرت الدويلات الجديدة التي اوضحنا ماهيتها وكيفية نشوئها . وهي – اذا استثنينا الجمهورية اللبنانية منها – لم تكن الا قواعد لحشد السيطرة الاستعمارية فيهـا وادوات لتحقيق مطامع الدول الاوروبية ، ودفع كل حركة تحريرية قد تظهر في الداخل مراحل بعيدة الى الوراء .

ثانيا ـ محو الطابع القومي :

بعد ان تم للدول الاستعمارية الحديثة ما ارادت من تطبيق سياسة التقسيم والتجزئة ، راحت تأخذ كل واحد من هذه الاجزاء على حدة ، فتطبق فيه طرازاً من الحكم فريداً في بابـه . وتسلط على اهله من قوى الاستعمار الفكرية والسياسية والادارية مـا يجعلهم ينوؤن بحمله ، لا سيما وهم منفردون . وكانت الغاية من وراء هذه الاساليب الجهنمية هي محو الطابع القومي من سائر البلدان العربية بوجـه عام ، ومن هذه المناطق الساحلية – المقصود فرنجتها – بنوع خاص .

لذلـك راحت الدول الاستعمارية تشجع العصبيات الصغرى بجميع

الوسائل ، وتحاول ان تجمع بينها وتنفخ فيها روح الانانية والتمرد . كما شرعت تستغل كل نزعة دينية ، او طائفية ، او عنصرية غريبة ، فتحاول ان تخلق منها قومية خاصة باصحابها ، وتقنع ابناء تلك القومية – المصطنعة – انهم لا يمتون الى الاكثرية العربية في البلاد بصلة . بل ان تاريخهم القديم فيها كان تاريخ اضطهاد وعبودية ، عليهم ان يتحرروا منه بانشاء كيان خاص لهم تحت حماية السلطات الاجنبية التي تعطف عليهم اكثر من مواطنيهم ، وتعنى بتاريخهم الخاص « المفبرك » اكثر من عنايتهم هم به .

ومن جملة المناهج التي اتبعتها الدول المستعمرة لاجل محو الطابع القومي وما كان هو بالواقع اشدها خطراً وابعدها اثراً ، هو حشد العناصر الدخيلة الطارئة بمختلف اجزاء هذه البلاد ، ومساعدة تلك العناصر الدخيلة على التكاثر والتمركز . وكانت الغاية من ذلك اما ان يضيع ميزان الاكثرية العصبية في البلاد ، على ما نحو ما فعلت فرنسا في لبنان ، عن طريق حشد لاجئي الارمن ، الذين كانوا حيثما وجدوا – والحق يقال – عنصراً طيباً لايخدم اغراض الاستعمار القريبة ولا البعيدة ، واما ان تخلق اكثرية جديدة من الجاليات الطارئة على البلاد ، وفق البرنامج الصهيوني – الانكليزي – الاميركي – في فلسطين ، والذي شكل للعرب اعظم ازمة سياسية وقومية يجابهونها بالوقت الحاضر .

والحقيقة انه لولا اتباع سياسة التجزئة والتقسيم السابقة الذكر ، ونجاح المستعمرين في تطبيقها نجاحاً تاماً ، لما بلغت هذه المسألة الثانية ما بلغته من الخطورة والتحرج . ولما تسنى لجاليات اجنبية طارئة ان تغير مجرى السياسة القومية في البلاد ، او ان تكاثر الشعب الاصلي ،

وتغالبه ، وتنازعه على السيادة في عقر داره . ولقد كانت فكرة محو الطابع القومي – عن المناطق الساحلية بنوع خاص – موجودة لدى الصليبيين الاول ، كما اشرنا الى ذلك من قبل في حينه . لكنها لم ترتد طابع الخسة والجبن الذي ارتدته الصليبية الجديدة هذه . بل كان اولئك الغزاة الاقدمون يقارعون سكان البلاد الاصلية بالسيف . وينازلونهم كافراد وجماعات ، منازلة الانداد للانداد . وكانوا لا يحملون الى الاستيطان في هذه البلاد الا اقواماً من ابناء جنسهم ووطنهم هم . فلا يجمعون شذاذ الآفاق ممن لا يمتون اليهم بصلة ما ، لا من حيث الجنس ، ولا الوطن ، ولا الدين . ولهذا كانت المعركة معركة مفتوحة مكشوفة . وكان الخصم خصما شريفاً غير متستر ولا مداج . ولما تم للقوة العربية الرجحان على القوى الاجنبية بعد سلسلة من الصراع الطويل ، عادت البلاد السورية برمتها الى ما كانت عليه ، ولم تجد بعد جلاء القوات الاجنبية جاليات طارئة ، او شعوبا غريبة مستوطنة عليها مواصلة الصراع معها ، كما ستجابه حالياً في فلسطين – ان صح – جلاء القوات البريطانية عنها جلاء تاماً .

فلسطين نقطة التمركز

كانت فلسطين لدى الصليبيتين القديمة والجديدة ، هدف الهجوم الاول ، ونقطة التمركز الاساسية . والمرجح ان ذلك لا يمكن ان يحمل على سبيل التصادف فقط ، بل انه لا بد من وجود اسباب فعالة ادت الى هذا الانطباق . والذي نراه نحن ان هناك عاملين رئيسيين اعطيا « فلسطين » هذه الدرجة من الاهمية ، احدهما معنوي والآخر ستراتيجي ، وها نحن نوضحهما فيما يلي :

العامل المعنوي : تعتبر فلسطين « بلاد الله المقدسة » لدى جميع اتباع الديانات السماوية وهي محاطة بهالة من القدسية السامية ، ولها حرمة ومهابة لدى جميع شعوب العالم المتمدن . لذلك يسهل توجيه الانظار اليها باسم استثارة العواطف الدينيـــة ، او الذكريات التاريخية ، او ما شاكل ذلك من الدعايات ذات التأثير في الجماهير .

ولما كانت جميع الموجات الصليبية ، القديمة والجديدة ، التي تتالت في غزواتها لهذه البلاد ، تضع دومـــا في رأس برنامجها نقل جاليات اجنبية غربية تستوطن وتستعمر ، وتكاثر ابناء البلاد الاصليين وتنتزع منهم حتى السيادة المحلية ، لذا كانوا يحتاجون الى كثير من المشوقات والمغريات التي تدفع بمثل هذه الجاليات الاجنبية على الهجرة من بلدانها في سبيل تثبيت دعائم الاستعمار العدواني في بلدان اخرى . ولم يكن في سائر اقطار المشرق بقعة تستهوي قلوب الغربيين على مختلف مللهم ، ونحلهم ، وطبقاتهم ومراتبهم غير فلسطين . لذلك اتخذت دوما هدف الهجوم الرئيسي من الغرب على الشرق ، ونقطة التمركز للجاليات الاستعمارية منذ عهد الصليبيين الاول حتى عهد طغام الصهيونية الحاضر .

العامل الستراتيجي : ولا يقتصر امر اهتمام قوى الغرب الاستعمارية بفلسطين على هذا العامل المعنوي العاطفي فقط ، بل هناك عامل مادي آخر ، هو العامل الستراتيجي الذي يضاعف في اهميتها وخطورتها . فقديماً ، ومنذ عهود التاريخ الاولى ، كان يقـال ان الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط هي « بوابة » العالم الرئيسية ، التي يرتكز احد مصراعيها في الاراضي المصرية ، والآخر في الاراضي الفلسطينية . ومن هـــذه

البوابة الكبرى ، كانت تلج الفتوحات والاحداث العالمية الكبرى الى حرم التاريخ ...

والواقع ان موقع فلسطين الجغرافي يجعلها في اهم المناطق الحساسة في العالم . فهي مفتاح زاوية البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وهي حلقة اتصال القارات الثلاث بعضها ببعض . وهي ملتقى جميع الخطوط العالمية الجوية والبرية والبحرية ، في حالات السلم والحرب . لذلك اصبحت تعتبر من اهم العقد الستراتيجية ، بالنسبة لخطط الدول الاستعمارية المعاصرة ، ولا حاجة الى التنويه بصورة خاصة الى انها كانت تعتبر الشريان الحيوي الاول في قلب الامبراطورية البريطانية في القرن الحاضر .

اما بالنسبة الى العالم العربي فهي القاعدة الرئيسية للهجوم والدفاع فيه كما يثبت التاريخ ذلك في شتى ادواره . وهي صميم الوطن العربي الاكبر ، وبمثابة نقطة السويداء في قلب ذلك الوطن ، من الناحية الجغرافية على الاقل . لاتنتظم المواصلات الداخلية بين الاقطار العربية ما لم تمر فيها . ولايتحقق لها اية وحدة اقتصادية او فكرية ، او ما شاكلها – ناهيك بالوحدة السياسية – ما لم تكن فلسطين مشمولة ضمن نطاقها . فهي نقطة التماس الوحيدة بين سورية ومصر . وهي المنفذ الوحيد ايضاً للعراق والحجاز ومعظم اجزاء الجزيرة الى البحر المتوسط ، كما انها حلقة الاتصال الوحيدة بين الاقطار العربيه الاسيوية والافريقية .

وقديماً في عهد الفتوحات العربية الاولى ، كانت فلسطين هذه هي ممر العرب الرئيسي في سائر حملات الفتح الكبرى التي خرجت من الجزيرة . وتدليلا على اهميتها القصوى في مجرى الاعمال الحربية في داخل البلاد العربية نجد ان البيزنطيين عندما خرجوا من دمشق ، وفقدوا (سورية الوسطى) ساحلا وداخلا ، لم يحاولوا التشبث

الاجزاء الشمالية من البلاد ، لاتخاذها قواعد رئيسية لدفاعهم الاخير او لكراتهم على العرب في هجوم معاكس عندما يتسنى لهم ذلك . بل اظهروا منتهى التشبث بالمحافظة على هذا الجزء الجنوبي ، وحاربوا العرب في كل شبر من أراضيه تقريباً ، وحتى انهم بعد ان خسروا معركتي قيسارية واجنادين وبعد سقوط القدس ، ظلوا يقومون بعدة محاولات لانزال قواتهم على السواحل الفلسطينية ، ومحاولة اجتياح سورية برمتها من هذه السواحل .

لذلك نرى ان فلسطين هي مفتاح الشرق العربي باسره ، في شطريه الآسيوي والافريقي قطعاً . فلا بد لمن يبغي السيطرة على هذه المنطقة المهمة من العالم لأي غرض كان ان يحتفظ بسيطرته على هذا الجزء منها . وان استقلال سائر البلاد العربية لايعتبر تاماً حقيقياً مالم يتم تحرير فلسطين من كل سيطرة اجنبية . وقد عرفت الدول الاستعمارية الحديثة ذلك فرمت هذا الجزء الحيوي من الاقطار العربية ، بشر انواع الاستعمار الذي لم تعرف البشرية له مثيلاً ، واقامت عقدة دائمة تستعصي على الحل وتكون في كل حين مصدرا للشر وادارة لاحداث خلل في التوازن ، عندما تقضي المصالح الاستعمارية الجشعة بايجاد مثل ذلك الخلل .

وخلاصة القول في هذا المقام ان المطامع الاستعمارية الحديثة في اوروبا ، فتحت دوراً جديداً من ادوار الصراع بين الشرق والغرب . وجددت عهد الغزو الصليبي الاول للساحل السوري بكامله لتحويل هذا الساحل – كله او بعضه – الى قواعد ثابتة يتمركز فيها هذا الاستعمار الحديث ، فيتحكم بمصائر المناطق الداخلية من البلاد التي لاحياة لها الا عن طريق هذه السواحل ، والتي تظل كل نزعة تحريرية قد تنشأ فيها ، تحت رحمة القوى الاستعمارية المتمركزة هناك .

اما ما يتعلق بفلسطين ، فاذا كان التاريخ قد اعاد نفسه من حيث تمركز الثقل الرئيسي لهذا الغزو الجديد فيها ، الا انه اختلف في نوع اولئك الغزاة ، مع الاسف . فاذا كانت حرب الصليبيين الاول قد حملت معها جموعا من المسيحيين الذين جاؤوا باسم « حماية قبر المسيح » فان الصليبية الجديدة قد حملت معها جموعا من الصهيونيين الشذاذ ، الذين لا عقيدة لهم ولا مبدأ ، ولا يحملون غير الافكار الهدامة والمبادي، الاباحية . جاؤوا باسم تجديد « هيكل سليمان » ، واتخذوا هذه الدعوة حجة لاقامة مؤسساتهم الالحادية الهدامة على انقاض صخرة المعراج المطهرة ، وكنيسة القيامة المقدسة . وبديهي القول انه بعد تحقيق اغراضهم هذه ، يسهل عليهم تغيير شكل فلسطين القومي ، والاجتماعي ، والجغرافي ايضا ...

فوا خجل التاريخ من هذا التناقض المشين ... ويالعنة المسيح على هؤلاء الذين يبيعون مهده ومناسكه بالاطماع الدنيوية الدنيئة !!

الصهيونية
عدوان غربي على الشرق

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...

تهافت الحق التاريخي – غرض الصهيونية الحقيقي – مظهر الصهيونية الاستعماري – التعاون مع الدول الاستعمارية مدى الخطر الصهيوني .

اوضحنا في الفصول السابقة ، الاسباب والعوامل التي تجعلنا نعتبر الحركة الصهيونية الباغية جزءاً من الصليبية الجديدة ومظهراً من مظاهرها الحية . والآن ، نعود الى تناول هذه الحركة بالذات ، فنظهر ماهيتها الحقيقية ، ونفصل عواملها ومنازعها ، والاهداف البعيدة التي ترمي اليها .

مهما تفنن اليهود في اختلاق الدعايات والادعاءات ، والالتجاء الى مزاعم تاريخية كاذبة وحقوق عنصرية موهومة لتبرير حركتهم الجانية هذه ، فالصهيونية لا تعدو كونها عدوان غربي على الشرق . ومهما

تظاهروا بـه من مظاهر المسكنة والضعف ، وتستروا وراء دعوى المشردين والمنكوبين منهم ، فهذا لا يغير كون كل صهيوني يدخل الى فلسطين ، هو اجنبي غاز مستعمر ، يريد انتزاع هذه البلاد الآمنة من اصحابها الشرعيين وسكانها الاصليين .

نعم ، يريد الصهيونيون ان يجعلوا دعواهم في انشاء دولة يهودية لهم في فلسطين ، انها هي حركة بعث سامي محلي في تلك البلاد الشرقية ، لا غزو استعماري جديد ، يندفع من الغرب تحت حماية حراب الدول الاستعمارية الكبرى للتمركز مجدداً في الشرق ...

ويريدون ان يصوروا مهاجريهم الذين يندفعون الى هذه البلاد انهم غرباء اصلاً في مواطنهم السابقة قبل هجرتهم هذه ، وهم مواطنون قدماء عائدون الى منازلهم الحقيقية في « ارض اسرائيل » ..

وبمثل هذه التهاويل الجوفاء ، استطاعوا ان يخدعوا جزءاً غير يسير من الرأي العام الدولي ، وان يستدروا بعض « العطف المصطنع » على قضيتهم الجانية . وها نحن الان نعمد الى تفنيد هذه الاباطيل ودحضها ، وابراز الحركة الصهيونية بثوبها الغربي الاستعماري الصحيح ..

تهافت الحق التاريخي

كان اول ما عني به اليهود من اسباب نشر دعواهم المزيفة في تملك فلسطين ، هو السعي في احياء ما يسمونه « الحق التاريخي » الدارس ، وقد اتقنوا استخدام هـذا السلاح اي اتقان حتى صوروا لكثير من العالم المتمدن ان موجاتهم الزاحفة الى فلسطين بغية انتزاع هذه البلاد من ايدي اصحابها الشرعيين ليست موجات طفيلية او استعمارية او غازية ،

وانما هي جموع من المشردين اخرجتهم سلسلة الاضطهادات من بلادهم وها هم يعودون اليها ثانية .

ولكننا اذا دققنا النظر في هذا القول الزائف ، نجد انه محض هراء . واذا تناولنا ذلك الحق التاريخي المزعوم بالتجريح العلمي المجرد ، نجده يتهافت سريعاً ، ولا يقوم على اساس من الصحة .

فمن هم هؤلاء الشذاذ الذين يحاولون الدخول الى فلسطين بشتى الحيل والاساليب غير المشروعة ؟؟

انهم جماعات بشرية ، ينتمون الى عدة جنسيات وقوميات . لهم اوطانهم المختلفة المعروفة . وقد تعرضوا في فترة « جنون العنصرية » في اوروبا الى موجة من الاضطهاد ، هناك ذاق منها اشد الآلام كثير من الشعوب الاخرى ، الممتزجة معهم ، والمجاورة لهم ، كان احدهم مسلمو يوغوسلافيا ايضاً . فانفرد اليهود باستغلال تلك المحنة ، اذ راحوا ينكرون جنسياتهم الاولى ، ويتخذون من ذلك الاضطهاد الطارىء الذي تعرضوا له فترة قصيرة من الزمن وزالت اسبابه بعد انتهاء الحرب ، وسيلة يفرضون بواسطتها نفسهم فرضا على بلاد اخرى آمنة متمدنة تكاد تضيق بسكانها ولم يكن لها اي علاقة بما تعرضوا له من المحن والبلاء ، ولا تكفي بمجموع مساحتها لاستيعاب جزء ضئيل من جموعهم الكثيرة ، التي يستجدون بواسطتها العطف والشفقة . وحجتهم الوحيدة في ذلك أن فلسطين كانت الوطن اليهودي الآمن في التاريخ القديم ، فلا ملجأ لهم الا اليها .

وما هي قيمة ذلك الحق التاريخي المزعوم ؟؟؟

انه يعود الى فترة قصيرة من الزمن ، يفصلها عن تاريخها الحاضر

تيف وثلاثة آلاف سنة .. قدر لليهود ان يدخلوا خلالها الى فلسطين ، فيفتتحوا البلاد ، وينشئوا لهم فيها دولة ووطنا ، لم يكن عصرهما الذهبي يزيد على ٧٥ سنة متوالية . . .

لكنهم عندما دخلو الى فلسطين آنذاك ، لم تكن بلاداً مجهولة فاكتشفوها ، ولا ارضاً غامرة فعمروها . بل كانت قد سبقتهم الى ولوجها سلالات متعددة من الساميين خرجوا من قلب الجزيرة العربية واطراف الهلال الخصيب . ليسوا غرباء عن التاريخ العربي ولا عن الجنس العربي ولايستبعد ان يكون بعض احفادهم المتحدرين منهم لايزالون مقيمين في هذه البلاد حتى اليوم ، سيان كانوا من النصارى ، او المسلمين ، او السامريين .

وعندما ظفروا بالاستيطان في هذه البلاد بحق الفتح لم يستطيعوا ان يحتفظوا بسيادتهم عليها طويلاً . بل تعرضوا لسلسلة من الغزوات الخارجية كان يشنها عليهم الاشوريون والبابليون والمصريون وسواهم من الشعوب المجاورة . فدمروا معالم ملكهم ،وشردوهم عدة مرات . حتى جاء الفتح الروماني الاخير في القرن الميلادي الاول فازال سيطرة اليهود نهائياً عن فلسطين ومحا كل حق سياسي لهم فيها . ولم تعد تقم قائمة لهم في تلك البلاد منذ الفي سنة خلت حتى اعلان وعد بلفور المشؤوم ..

في حين ان العرب الذين ادالوا دولة الرومان عن سورية الطبيعية بكاملها ، منذ اوائل القرن السابع الميلادي ، ظلوا متمركزين في فلسطين منذ ذلك التاريخ حتى عهدنا الحاضر ، يؤلفون سواد السكان الاعظم على الدوام ، ويعيشون فيها آمنين عاملين مستقرين ، ويدافعون عنها ببساله وفدائية كلما تعرضت لغزوات احد من الفاتحين .

افبعد هذا التباين التاريخي الواضح بين حق الفريقين ، يأتي شذاذ الافاق من مختلف اقطار المعمور الى هذه البلاد المنكودة الحظ ، فيسعون لمكاثرة سكانها الاصليين بالوسائل غير المشروعة وانتزاع السيادة منهم على وطنهم وبلادهم عنوة واقتداراً ؟؟

اللهم ان هذا افظع عدوان يشهده التاريخ اذا تم ... واعظم امتحان لضمير الدول الكبرى التي تدعي الدفاع عن المبادىء الانسانية ، والعدالة الاجتماعية . كما انه المعركة الحاسمة بين الموت والحياه للشعب الفلسطيني وسائر الشعوب العربيه التي تطلب الحرية والسيادة ، اذا جرفها هذا التيار الماحق فلا رجاء لها بالحياة بعد ذلك ..

اهداف الصهيونية الحقيقية

كان الصهيونيون في ابتداء حركة هجرتهم الى فلسطين ـ منذ اواخر القرن التاسع عشر ـ يزعمون ان مهاجريهم اولئك لا يبتغون من سكناهم في هذه البلاد المقدسة ، الا ممارسة طقوسهم الدينية ، واحياء تقاليدهم الروحية وذكرياتهم التاريخية . لذلك قوبلوا من السلطات العثمانية ـ الحاكمة آنذاك ـ ومن سكان فلسطين ، بروح التسامح ، والعطف ، وعدم الاكتراث بأي خطر ينشأ عنهم .

وفي الحرب العالمية الاولى ، بعد صدور وعد بلفور المشؤوم ، تحولت هذه النزعة الروحية الدينية ، الى مشروع انشاء « وطن قومي » تتجمع فيه الجاليات اليهودية من مختلف بقاع الارض ، ومن شتى الاجناس ، فتعيش كجماعة قومية متحدة ، لها تقاليدها الخاصة ، وتتكلم لغتها الخاصة . لكنهم مع ذلك ظلوا يتسترون وراء رداء

الضعف والمسكنة ، وايهام العرب انهم سوف لا يصبحون اكثرية متحكمة في البلاد .

حتى اذا حققوا برنامج تملك الاراضي الواسع النطاق ، واصبح لهم مناطق كثيرة كاملة في حوزتهم وصاروا من الكثرة بما يخولهم كشف القناع عن مطامعهم الاشعبية الحرقاء ، اسفرت حركتهم هـذه عن وجهها البشع الحقيقي ، فاذا هي ترمي الى تحويل شكل البلاد ، وتغيير كيانها السياسي ، فتستبدل امة بامـة ، وتحل شعباً محل شعب آخر وتنشيء في هـذه البلاد العربية « دولة يهودية » ذات سيادة مطلقة ، لتصبح فلسطين يهودية ، كما هي انكلترا انكليزية ، واميركا اميركية ، على حد قول بعض زعماء الحركة الصهيونية المتطرفين ...

نعم هذا موجز تطور الحركة الصهيونية في فلسطين ، وهذا هدفها الاقصى وغرضها الحقيقي . فهي بهذا حركة استعمارية محضة جريئة ، تنطوي على اشد ما عرف عن الاستعمار من الشر والبلاء . وهي عدوان انساني صريح ، وبدعة قومية غريبة ، ما بعدها عدوان وابتداع .

ولو كانت تلك الجماعات البشرية التي تسوقها الحركة الصهيونية الى فلسطين سوقاً كالانعام ذات جنسية واحدة ، او صادرة عن بلد واحد ، او تتكلم لغة واحدة ايضاً ، لكان لهذه الحركة الجانية بعض ما يبررها ظاهريا على الاقل . لكن افواج المهاجرين لايؤلف [بينهم الا الديانـة اليهودية فقط ، والاساطير القديمـة التي يريدون ان يسموها « تاريخاً مشتركا . » اما اللغة العبرية ، فمعظمهم لايعرف منها شيئاً ايضاً ، ولا يتعلمونها الا بعد دخولهم الى فلسطين ، ومن مثل هذه الجماعات المشعثة المتباينة تريد الصهيونية انشاء امة يهودية في فلسطين ، يكون لها الحكم والسيادة ، وتعتمد استئصال جذور الشعب الفلسطيني العربي الذي مر

على وجوده في تلك البلاد اربعة عشر قرنا ، وسجل فيها لنفسه تاريخا يعجز عن محوه الزمن . افيمكن تحقيق هذه الخرافة اليهودية الجديدة ، وهذه البدعة الاستعمارية المبتكرة ؟؟

لو دقق المفكر الحكيم ، والناقد المجرد ، النظر في هذه القضية ، لحكم على مثل هـذه الحركة بالفشل المحتم . فالصهيونية – بهذا النوع من المهاجرين – ستنشيء (برج بابل) جديدا في فلسطين ، ولا تنشيء وطناً وقومية . وبزوال عهد الاضطهاد من اوروبا – وهذا ما أخذ بالزوال السريع اثر انتهاء الحرب – لا يرجح بقاء جميع هذه القطعان البشرية ، التي حملت حملاً من اوطانها الاولى التي مر عليها فيها مئات السنين ، لتسكن وطناً جديداً لا تعرف عنة شيئاً الا مـا تسمعه من الاساطير الخرافية . وهل للاساطير الخرافية ان تغذي العقل البشري طويلاً في القرن العشرين ؟ واكبر دليل على صحة هـذا القول ان كثيراً من اليهود الحاليين في فلسطين يحنون الى العودة الى اوطانهم الاولى بعد انتهاء الحرب ، لكن عدم تمام الاستقرار العالمي ، وسيطرة الارهابيين الموقتة يمنعانهم من تحقيق هذه الامنية بالوقت الحاضر .

ثم ان هنالك عاملاً جوهرياً آخر يجعل هـذا المشروع اسطورة خرافية . وهو « ضيق المدى الحيوي » للدولة اليهودية المزعومة . وعدم تمكنها من استيعاب مئات الالوف من اليهود الذين تظهرهم الحركة الصهيونية بمظهر المشردين المنكوبين البؤساء الذين لا معيل لهم ، ولا وطن ولا ملجأ ، ولا امل لهم بالحياة الا بالاستيطان في فلسطين . فاذا ضربت « الدولة اليهودية المنشودة » صفحاً عن أكثرية هؤلاء ، لا تكون قد أدت رسالتها بالنسبة « لشعب الله المختار » التي تزعم انها

رمز سعادته وهنائه على الارض . واذا قدر لها ان تفتح ذراعيها في وجوههم جميعاً - وهذا ما لن يتسنى لهـا قط - فانها تعجز عن استيعابهم واعالتهم ، ويكون مصيرها الافلاس والتفكك ، لاسيما وقد كتب لها ان تعيش ضمن حلقة من الدول المعادية والشعوب الثائرة ، التي لاسلام بينها وبينهم قط ..

ومن البديهي القول ان اساطين الصهيونية العالمية ليسوا بغافلين عن هذه الحقائق . لكنهم مع ذلك لهم اغراض خفية وراء هذه الحركة التي ابتدعوها ، يجهلها حتى اولئك الجماعات التي تحمل الى فلسطين باسم « الوطن القومي » ومشروع انشاء « الدولة اليهودية » فقد تقمص هؤلاء القادة عقلية الغرب الاستعمارية ، لاسيما وهم بطبيعتهم مؤسسوا مبادىء التضخم الرأسمالي والصناعي . ولمـا بلغت ثروتهم المالية فوق حدود الاشباع ، والسيطرة على ميزان التجارة العالمية ، انصرفوا جزئياً عن الانتاج المادي البحت الرامي الى حصر ثروة العالم بين ايديهم ، وراحوا يفكرون بانشاء منطقة خاصة بهم ، تحمل اسم عنصريتهم في العـالم ، ويتخذونها مظهراً لسيادتهم ومركزاً لممارسة نفوذهم السياسي الاقتصادي الذي اذا اطلقت ايديهم فيه وكان لهم تمام السيادة وحرية التشريع ، حولوه الى قاعدة للتوسع والتبسط لا يعلم مراحلها ومداها الا الراسخون في علم الاستعمار ..

لهذا اندفعوا وراء تحقيق حلمهم الاسطوري في فلسطين ، حيث يسهل استهواء الطبقات الدنيا من ابنـاء جلدتهم اينما كانوا ، باسم الذكريات التاريخية الدارسة ، والخرافات المذهبية الجوفاء . فراحوا يحشدون فيها الشذاذ والعيال ، لا لانهم يريدون انشاء « وطن » بالمعنى الصحيح المعروف ، يجمع شمل الشعب اليهودي برمته ، ويعود اليه اولئك الاثرياء

والعلماء واصحاب المراكز السامية . بل لانهم يريدون انشاء « مستعمرة » (١) يهودية ، يحشدون فيها المتشردين والحثالة ، الذين مجتهم البلدان الغربية. فيعيش هؤلاء، كما يتيسر لهم ، ويمدهم اولئك الزعماء والرأسماليون بالاعانات والهبات . ثم يكدحون هم في الارض جهدهم لاستثمارها ، ويعملون كالسوائم في المصانع التي ينشئها لهم كبار المتمولين المقيمين خارج فلسطين من فضلات رؤوس اموالهم .

اما الطبقة العليا من ارستقراطية اليهود ، وكبار متموليهم ، واصحاب المراكز السامية في الدول العظمى الحرة منهم ، فان هؤلاء لن يتنازلوا عن تلك النعم التي يتمعون بها في سبيل الاحلام والاساطير. بل سيظلون دائماً في ابراجهم العاجية يتلذذون ان يروا لهم دولة وراء البحار تدعى دولتهم ، وبلاداً تحمل اسم شعبهم . يدفعون اليها بكل فقير ومعيل من ابناء ملتهم كي لا يظل يتسكع امام اعينهم فيسيء الى كرامتهم ورفعة منزلتهم . ويعتبرونها ملجأ لكل من تضيق به بلاده الاصلية ، ومستقراً للشذاذ والفوضويين ، وحتى للارهابيين ايضاً كما اثبتت الحوادث الاخيرة .

وانه ليسهل على اولئك السراة وارباب المقامات العليا ، ادارة هذه « المستعمرة اليهودية » من وراء الستار . فيخلقون فيها من التيارات السياسية ما يريدون وفقاً لاهوائهم الخاصة ، ومصالحهم ازاء بعض الدول الكبرى . كما يقيمون من رؤوس اموالهم الضخمة ، مصانع تندس منتجاتها في اسواق الشرق الاوسط ومعظم سواحل البحر المتوسط للمنافسة ، او المضاربة او الربح المادي .

ومن المعروف ايضاً ان « لليهودية العالمية » وراء هذه الخطوة

(١) راجع كتاب : فلسطين العربية – للمؤلف – ص ٥٧

الاولية هدفاً اقصى مستوحى من مثل هذه المقاصد الشجعة الخبيثة ، لن يقف عند حدود « الدولة اليهودية » المنشودة التي قد تنحصر في جزء من فلسطين او تشملها كلها ، وذلك يتوقف على نسبة ما يستطيع ارباب المال شراءه من الضمائر العالمية ، والدول الكبرى المتحكمة في توجيه « ميزان العدل الدولي » الموهوم . بل ان لهذه الحركة العدوانية منهاجاً بعيد المدى متعدد المراحل ، يرمي الى ضم مناطق كثيرة مجاورة لتلك الدولة العتيدة . وقد لا يقتصر هذا المنهاج على فلسطين وسوريا فحسب بل يتعداه الى اطراف الهلال الخصيب ايضاً . وقد نظمت الصهيونية العالمية خرائط ترسم ذلك الحلم اليهودي الجديد ، وتجعل حدود دولتهم المنشودة على ضفاف الفرات .

وبهذه الصورة نجد اهداف الصهيونية تتطور من الوطن القومي « الى الدولة اليهودية في فلسطين » ثم الى « امبراطورية صهيونية » لا تسيطر على البلاد العربية فقط ، بل قد تسعى الى تحويل الشرق الاوسط برمته الى منطقة نفوذ اقتصادي ، ثم سياسي ، لها . واذا تم لهم هذا يسهل على هؤلاء الابالسة ان يصبحوا دولة من الدول العظمى، تجثم في قلب العالم . وتقبض على ناصية خطوط التجارة العالمية ، والعقد الستراتيجية فيلعبون بواسطتها بالميزان الدولي في العالم ايام السلم اوالحرب كما يفعلون باحزاب اميركا السياسية بواسطة كتلة ناخبيهم الصغيرة المنظمة هناك ، التي تميل كفة الحزب الذي ينضم اليها .

ومن يدري اذا كانوا لايبيتون وراء كل هذا حلماً اشعبياً عجز عنه من سبقهم من الطواغيث امثال نابليون وقيصر وهتلر الا وهو الوثوب الى سدة السيادة العالمية .

هذه هي الاهداف الحقيقية للحركة الصهيونية الجانية ، وهذا هو الغرض الرئيسي المقصود من انشاء الدولة اليهودية يسعى زعماء اليهودية العالمية الى تحقيقه . أفمن اجل هذه المطامع الاشعبية الخرقاء ، التي لم تقرها الانسانية ، ولن يحققها التاريخ ، يصح التساهل في تشريد شعب آمن حي عريق في الحضارة ، عن وطنه الاصلي التاريخي ، ليصبح هذا الوطن مسرحاً لشذاذ الآفاق ، ونفايا الشعوب ومصرفاً لفضلات رؤوس الاموال الضخمة التي غصت بها اسواق الغرب المزدحمة المكتظة فزحفت الى الشرق حيث تجد المقاومة اضعف والمنافسة ايسر ؟

اللهم لئن اريد للتاريخ ان ينحرف عن مجراه الطبيعي ، وان تدين الحقائق الطبيعية لباطل من الاساطير ، فما علينا الا ان تغير هذه الارادة العاتية بدمائنا وارواحنا ، وما ذلك بكثير .

مظهر الصهيونية الاستعماري

ليس ادل على اغراض الصهيونية العدوانية ، ومطامعها المتطرفة البعيدة، من مظهرها الاستعماري الواضح ، الذي تجلت به وهي في وضعها الراهن في فلسطين . اذ ان هذا الشعب الذي يدعي المسكنة ويتظاهر بالشكوى من الاضطهاد والظلم اللذين يتعرض لهما في البلدان الاخرى ويزعم انه لايبغي من وراء المجيء الى فلسطين الا الحصول على الامان في العيش ، لم تكد تطأ اقدامه هذه الاراضي المقدسة ، حتى تمرد واستأسد وكشر عن انياب المطامع البعيدة ، وتجلت روح الشر والعدوان ، والاثرة وحب التسلط ، في جميع مناهجه واعماله ومؤسساته التي انشأها .

فعوضاً من ان ينعم ابناؤه بما كانوا ينشدونه من الامن والطمأنينة، والاستمتاع بكامل الحقوق المدنية والسياسية ، راحوا ينشئون الجمعيات العنصرية التي تبث في نفوس افرادهم روح الحقـــد والكره وتشجع نزوات التعصب والانانية . كما شرعوا منذ بضعة عشر عاماً خلت بتأسيس المنظمات العسكرية العدوانية التي لاتستهدف الا انتزاع حقوق الغير ، والاخلال في الامن بالبلاد . وها قد تجلت اعمال هذه المنظمات بوضوح في السنوات الاخيرة ، كما كانت تظهر بين الفينة والفينة خلال سلسلة الاضطرابات الطويلة التي غمرت البلاد الفلسطينية تباعاً في ربع القرن الاخير.

وبدلا من ان تنصرف الجموع اليهودية التي زعمت انها تعود الى فلسطين لاحياء ذكرياتها التاريخيـــة ، وتجديد ميراثها الديني والروحي القديم ، فتنشيء لاجل ذلك المؤسسات الروحية البريئة وتعيش في جو من المبادىء السامية المستوحاة من التعاليم الدينية ، انصرفت بكليتها الى انتزاع الارض من ايدي اصحابها الشرعيين ، متسلحة بقوتي النفوذين الحكومي والمالي . وراحت تنشيء فيها المستعمرات والمعامل والمصانع ، وتكدس انتاجها التجاري اكداساً تغزو فيه سائر اسواق البلاد العربية فتغرقها اقتصاديا كما غزت فلسطين بسيل من المهاجرين غير الشرعيين ، فاغرقتها سياسياً وقومياً .

اما اذا سألت عن « ابناء شعب الله المختـــار » كيف يعيشون في هذه المستعمرات والمعامل والمصانع ، وهم قد جاؤوا الى هـــذه البلاد لبعث تعاليم التوراة ومبادئها السامية ، فالجواب على ذلك انهم يعيشون حياة الاباحية والاستهتار ويدينون بمبادىء الالحـــاد والفجور ، ولا يهم الطبقة العليا من قادة الحركة الصهيونية شيئاً من هذا ، لانهـــا لا تعني

الا بحشد اكبر عدد ممكن من اليهود ، في البقاع التي يمتلكونها في فلسطين . لا تقيدهم الا بنظام العمل والانتاج ، ولا تطلب منهم اعتناق اية فكرة كانت سوى فكرة السعي لانشاء « دولة يهودية في فلسطين » .

واضافة الى هذا المبدأ الداخلي النهم الفاسد الذي تتبعه الصهيونية ازاء ابنائها في فلسطين ، مما سيؤدي في المستقبل الى تشكيل جماعة منهم تصبح خطراً على الكيان الاجتماعي والاخلاقي في سائر الشرق الاوسط عندما يتسنى لها التغلغل فيه ، فانها تتبع مبدءاً سلبياً عنيفاً ازاء العرب ، يرمي الى افقارهم وتجريدهم من وسائل الرزق والعمل بصورة محكمة ومريعة .

فبعد ان انتزعوا من ايدي الشعب الفلسطيني الاصيل الجزء الكبير من خيرة الاراضي المنتجة وتمركزوا على سواحل البلاد فاستولوا على مرافقها التجارية الرئيسية ، اعلنوها حربا اقتصادية عنيفة على العنصر العربي في هذه البلاد بحيث لم يعودوا يستخدمون عربياً فلسطينياً في اعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية . كما انهم حصروا تعاملهم الشرائي في البلاد بانفسهم ومؤسساتهم اليهودية فقط . ما عدا بعض المواد الغذائية التي لا يملكون منها ما يكفي لجموعهم الكثيرة التي تكتظ بها مدنهم الصناعية . وبهذه الطريقة جعلوا العرب امام خطر الانهيار الاقتصادي السريع ، الذي لا ينجيهم منه الا تحقيق منهاج المقاطعة العامة لعموم المنتوجات الصهيونية هذا المنهاج الذي اقرته جامعة الدول العربية منذ سنتين تقريباً فاتى بالنتائج السريعة المرضية نسبياً حتى الان .

وبعد ، فهل نحتاج الى ادلة جديدة تؤكد لنا ان الحركة الصهيونية انما هي حركة استعمارية محضة ترمي الى التمركز في قلب البلاد العربية برنامجها انتزاع السيطرة السياسية الكاملة على بقعة معينة منها — هي فلسطين المنكودة مع الاسف — ثم تحويل سائر اجزاء البلاد العربية الاخرى الى منطقة كبرى خاضعة للنفوذ الاقتصادي الصهيوني ، كخضوع فلسطين للنفوذ السياسي ثم افقار العنصر العربي باعجازه عن المنافسة الاقتصادية ، واضعاف امكانياتهم في المقاومة السياسية ايضاً . ناهيك عما يشيعه ذلك المجتمع اليهودي الفاسد الذي يعيش حياة الاباحية والاستهتار من انحلال اخلاقي واجتماعي ، وهذا ايضاً من اكبر دعائم الاستعمار ووسائله الفتاكة ...

التعاون مع الدول الاستعمارية

ولا تقتصر الصهيونية على مظهرها الاستعماري الخاص ، او برنامجها الشخصي الرامي الى افقار العرب واضعافهم . بل هي تتعاون مع كل دولة استعمارية ذات مصالح ومطامع في البلاد العربية ، وتسعى بكل جهدها لايجاد حلقة مشتركة من المنافع المتبادلة بينها وبين اية واحدة من هذه الدولة . ومرد ذلك الى جبانة زعماء الحركة الصهيونية ، وشعورهم بعجزهم الفاضح عن مجابهة قوى البعث العربي التحريري بفردهم . لذا وجدوا انفسهم مضطرين للاستعانة بقوة الغير ودمج مصالحهم مع مصالح اية سلطة غربية استعمارية ، تسعى الى تفريق الشعوب العربية ، وتحطيم قواهم المادية والمعنوية .

والحقيقة ان الصهيونية لم تكن تعتمد على قوة خاصة لها منذ

نشأتها ، وفي جميع ادوارها . فهي عند ابتداء حركتها في الحرب العالمية الاولى لجأت الى الامبراطورية البريطانية ، فبذلت لها جميع الخدمات والمساعدات الممكنة ، ووضع زعماؤها قواهم المادية والعلمية والعقلية تحت تصرف هـذه الدولة العريقة في الاستعمار . وكان كل ما يطلبونه ازاء هذه الخدمات الحصول على تأييدهم في انشاء « الوطن القومي » في فلسطين . وقد تم لهم ما ارادوا كما هو معلوم ، اذ جاء وعد بلفور المشؤوم - الذي يعد حجر الزاوية الاولى في كيان ذلك « الوطن العدواني » - مكافأة للحركة الصهيونية على خدماتها الجليلة المشار اليها آنفاً ...

وبعد ان اوجدت اليهودية العالمية لنفسها ذلك المدخل في فلسطين ، تحت لواء الجيوش الانكليزية في الحرب العالمية الاولى ، عمدت الى توطيد اقدامها بواسطة حراب القوات الانكليزية المحتلة اولا ، ثم بواسطة سلطة الانتداب الاستعمارية الدولية ثانياً ، تلك السلطة التي فرضت فرضاً على جميع دول العرب - مكافأة لهم على جهودهم الثمينة في الحرب العالمية الاولى ..! - بدون الاكتراث بموافقتهم او عدم موافقتهم عليها . لهذا اصبح بقاء السلطة البريطانية على فلسطين شيئاً ضرورياً لأجل تحقيق مشروع « الوطن القومي الصهيوني » وبات عرب فلسطين منذ عام ١٩٢٠ ، اذا ارادوا مقاومة اعدائهم الالداء من الصهاينة ، يجدون امامهم سداً منيعاً من القوات البريطانية ، اقيم للدفاع عن اولئك الدخلاء المعتدين ووجد لمساعدتهم على تملك تلك البلاد ، وافقار سكانها الاصليين واذلالهم ، ثم تشريدهم منهـا ليحل محلهم فيها شذاذ طفيليون ، جمعوا من تحت كل كوكب .

ولم يكتف الصهيونيون بمساعدتهم الاستعمار البريطاني في فلسطين حتى الحرب العالمية الثانية لكونه هو علة وجودهم في تلك البلاد ، والضامن الوحيد لبقائهم وسلامتهم . بل راحوا من بعد الحرب العالمية الاولى يؤيدون كل سلطة استعمارية اخرى في اي قطر من الاقطار العربية . ولذلك نظراً لما رأوه من يقظة الشعور القومي في تلك الاقطار ، واجماع العرب طراً على اختلاف ديارهم ومذاهبهم ، على مقاومة مشروع « الوطن القومي الصهيوني » واعتباره مشروعاً عدوانياً موجهاً ضد العرب جميعاً وخطراً على كيان كل قطر عربي ، وشعب عربي ، كما هو خطر على فلسطين العربية وشعبها الاصلي .

وهكذا كانت الصهيونيـة من اكبر انصار تثبيت دعائم السيطرة الافرنسية على سورية ولبنان . وكانت منظماتها العليا على اتصال وثيق مع كبار زعماء الحركة الاستعمارية في قلب العاصمة الفرنسية تبذل لهم منتهى الود وتغدق عليهم الخيرات . وتقدم لهم جميع المساعدات المادية والسياسية ، في سبيل التعاون معهم على حفظ السيطرة الافرنسية الاستعمارية في سورية ولبنان والتعاون بين سلطات الانتداب في الشرق، وبين الدوائر الصهيونية العليا في فلسطين على خنق كل حركة تحريرية يمكن ان تنشأ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط . واكبر دليل على ذلك هو تأثير النفوذ الصهيوني على الحكومة الفرنسية الاشتراكية عام ١٩٣٦ - التي كان يرأسها المسيو بلوم اليهودي - وعلى البرلمان الفرنسي القائم آنذاك ، لرد المعاهدة السورية - الفرنسية ...

وفي عام ١٩٣٦ بذاته - وهو عام الشؤم على سورية - هبت تركيا تطلب سلخ لواء الاسكندرونة عن جسم الدولة السورية اثر مشروع

المعاهدة بالغاء الانتداب الافرنسي عن هذه البلاد . فلقيت هذه الحركة العدوانية كل تأييد وتشجيع من الصهيونيين ، وباتوا يصفقون لها طربا . كما بذلوا جميع وسائل التشجيع للحكومة الكمالية في تركيا ، وفي الاوساط الدولية العليا ، لأجل تحقيق هذا المشروع العدواني ، الذي يعتبر طعنة نجلاء وجهت الى صميم الكيان السوري والى القضية العربية بوجه الاجمال.

وظلت الصهيونية – بين الحربين العالميتين – تسلك سياسة تشجيع كل حركة انفصالية ، او شعوبية ، او طائفية رجعية في جميع البلدان العربية . كما كانت تتعاون مع كل مطمع استعماري او اعتداء خارجي يتجه شبحه نحو تلك البلاد . وتشجع سياسة الفوضى والافقار حيثما وجدت ومن اينما صدرت كما تشجع سياسة التجزئة والتفكك . غايتها من ذلك كله اضعاف قوى العرب وتفريق شملهم لينوؤا تحت كلكل الاستعمار الغربي عاجزين ، ولتصبح كل منطقة او جماعة منهم ، مشغولة بذاتها ، منصرفة لمعالجة مصيبتها الخاصة . فتبقى فلسطين لقمة سائغة لهم ، ويعجز اهلوها بمفردهم عن صد تيارهم الجارف ، لا سيما وهو متستر وراء اكبر قوة استعمارية في العالم آنذاك الا وهي قوة الامبراطورية البريطانية .

وبعد الحرب العالمية الثانية عندما اختل التوازن الدولي اختلالا كبيراً ، وانهارت بعض الدول الاستعمارية وفي طليعتها فرنسا ، تمكنت البلدان العربية من اغتنام الفرصة فشرعت بلم شعثها ، واستكمل بعضها عناصر سيادته واستقلاله ، وعقدت روابط التعاون الاخوي والتآزر القومي بين بعضها بعضاً ، ضمن اطار الجامعة العربية . لذا طرأ تغيير كبير على العلاقات البريطانية – العربية العامة من جهة ، والعلاقات البريطانية – الصهيونية من جهة اخرى . فلم يعد باستطاعة الامبراطورية

البريطانية اغضاب سبعين مليونا من العرب واضرام نار الحرب والبغضاء ضدها في قلب الشرق الاوسط ، في سبيل ارضاء شهوات ابالسة الصهيونية ومساعدتهم على تحقيق مناهجهم العدوانية الهدامة ، التي لن تكون في النهاية لمصلحة احد غير انفسهم . فكان ما كان من نشوب النزاع بين المنظمات الصهيونية والسلطات البريطانية في فلسطين ، وما تبعه من نشاط الاعمال الارهابية العنيفة من قبل الفريق الاول ، مما ادى الى اضطراب حبل الامن في البلاد وتكبيد البريطانيين خسائر فادحة في الارواح وهزائم معنوية مزرية لم يتعرضوا لمثلها من قبل قط .

ولما استحكم الخلاف بين الفريقين ، واستحر القتل من الجانبين ، تبينت الصهيونية العالمية انها قد فقدت العضد الاول الدولي في دعواها العدوانية ومسعاها الاستعماري . لذلك لم تجد بدا من التحول سريعاً الى وجهة اخرى ، والتعويض عن هذه الخسارة بشراء اصدقاء جدد غير الانكليز . لذلك اتجهت نحو الولايات المتحدة الامريكية ، فوجدت هناك لدى عباد الدولار خير انصار واعوان ، وضمنت دولة كبرى تتبنى مرحلة انشاء « الدولة اليهودية » في فلسطين ، كما تبنت بريطانيا العظمى من قبل ، مرحلة تأسيس « الوطن القومي » .

لهذا بدأ الصهيونيون بتوجيه انظار الاميركيين نحو الشرق الاوسط ، والدفع بهم الى قلب البلاد العربية ليستدرجوهم الى تأسيس علاقات متنوعة لهم في هذه البلاد ، وتكوين مصالح اقتصادية ، وستراتيجية ، وسياسية ايضاً ، يضطرون بعدها الى التصميم على « التدخل » في شؤونها بحجة تأمين مصالحهم هذه . وها هم هؤلاء الاميركيون ، الذين كانوا يعدون اوروبا قبلا خارجة عن نطاق مصالحهم ومدى اهتمامهم ، اصبحوا

ينساقون تدريجياً مع هذه المغريات اليهودية ويشرعون بانشـــاء برنامج « استثماري » في البلاد العربية . ومـا السبب الحقيقي لذلك كون الولايات المتحـدة مفتقرة الى موارد جديدة او اسواق جديدة ، بـل لكون اليهودية العالمية قد وجدت نفسها بحاجة الى مستند دولي استعماري كبير في البلاد العربية ، تستعيض به عن انهيـــار فرنسا ، وعن انحراف انكلترا .

وهناك طامة كبرى جديدة ايضاً ، يظهر ان اليهودية العالمية وجدت مجالا للتنسيق بينها وبين مطامعها العدوانية في البلاد العربية ، نعني بها الشيوعية . . . فقد ظهر جليا مـــدى التعاون الوثيق بين المنظمات الصهيونية والسلطات السوفياتية في شرقي اوروبا ، منذ الحرب العالمية الثانية . وكان التبرير الظاهري لهذا التعاون هو اتحادهما معاً في النضال ضد عدو مشترك هو « النازية » . لكن بعد زوال الحرب ، تبين ان هذا التعاون لم يقتصر على مقاومة النازيين فقط . بل تجاوز الى تنظيم عملية تهريب اليهود من مختلف المناطق الاوروبيـة المحتلة الى سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، بفضل مساعدة السلطات السوفياتية ، والتسهيلات التي تقدمها عن طريق اعداد وسائل النقل . كما كان عدد كبير من البواخر الصهيونية التي تقل افواج المهاجرين غير الشرعيين يجد له المرسى الامين في الموانيء الواقعة ضمن مناطق النفوذ السوفياتي . وهذا هو موقف روسيا الاخير في مجلس الامن ، بتأييدهـا لمشروع التقسيم ، وانشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، يعطي الدليل القاطع على التعاون الوثيق بين الشيوعية العالمية ، والصهيونية العالمية ، ضد عـدو مشترك جديد ، هو « القومية العربية » في الشرق الاوسط .

والسبب في اتحاد هاتين القوتين العظيمتين هذا ، هو ان كل واحدة منها تجد في اشتداد حركة الوعي القومي العربي ، خطراً على مصالحها الحيوية . فالصهيونية تعلم يقيناً ان لاحياة لها في العالم مع القومية العربية الحديثة ، التي تعتبر الصهيونية ألد اعدائها ، وجرثومة شر في صميم الكيان العربي لابد من اقتلاعها . والشيوعية الطامحة الى الاندفاع نحو الجنوب ، والذي اخذت بالتغلغل والتدخل فعلاً في صميم ايران ، وتركيا ، واليونان ، تجد الجبهة العربية الكبرى ، تقف سداً منيعاً يحول دون اندفاعها هذا فتتمنى تفكيك هذه الجبهة باية وسيلة ممكنة ، حتى ولو عن طريق التعاون مع الرأسمالية اليهودية .

وبناء على كل ما تقدم نجد الصهيونية تفتش عن كل وباء استعماري في العالم ، وتتطوع لنقل جراثيمه الى البلاد العربية باية وسيلة كانت . كما نجد كل استعمار غربي يتطرق الى بلاد العرب ، يلقى من الصهيونية خير عون له على تحقيق اغراضه ومطامعه . كأن كلا منها ليشعر ان الآخر جزء متمم له رغم ما يكون بينها من تضارب في المصالح ، واختلاف في النزعات . لكن الصهيونية الخبيثة تضرب صفحاً عن تضارب المصالح واختلاف النزعات ، تمشياً على قاعدة « الغاية تبرر الواسطة » فهي تستخدم اية قوة استعمارية كانت ، ما دامت مصالحها تتفق معها . ثم لاتلبث ان تنفض يدها منها ، او تجاهرها العداء حتى — كما فعلت مع بريطانيا حالياً — عندما تنتهي مصلحتها واياها ، او تتضارب معها .

مدى الخطر الصهيوني

اذا اتينا الى التعمق في درس حقيقة الخطر الصهيوني ، وسبر اغواره ، وتحديد آفاقه ومداه ، نجد انه شر ما تعرض اليه اي جزء

من اجزاء البلاد العربيـة من انواع المحن والنكبات الاستعمارية على الاطلاق . فهو وان تشابه في بعض مظاهره مع الموجات الصليبية الغازية ، او المطامع الاستعمارية الحديثة ، اشدها خطراً بلا جدال . ذلك لان هذه الحركة الصهيونية الباغية لا تقتصر غاياتها على التسلط على فلسطين موقتاً ، او استثمار مرافق البلاد وتسخير اهلها لتحقيق مطامع سياسية او اقتصادية معينة . بل انهـا ترمي الى استبدال شعب اصلي بشعب آخر طاريء . وتستهدف تغيير جنسية السكان ، وتغيير وضع البلاد الجغرافي ، ومجرى تاريخها القومي . وهي ذات اهداف دائمة ، ومقاصد ابدية ، اذا تم لهـا تحقيقها في اية غفلة من غفلات الدهر - لا سمح الله - فلا يتسنى محوهـا او تغييرها مـع تغيير التوازن الدولي ، أو بواسطة استغلال حدث عالمي ، أو ما شاكل ذلـك من الوسائل السياسية المتبعة في مكافحة الاستعمار الحديث .

نعم ان انشاء « دولة يهودية » في فلسطين ، ونقل بضعة ملايـين من صهيونيي العالم الى هذه البلاد العربية ، بصفتهم رعايا تلك الدولة الطارئة يعني ميلاد شعب أجنبي جديد في قلب الوطن العربي الاكبر ، لا يعترف بكونه اجنبيا أو طفيليا ، أو غازيا . بل يعتبر نفسه قد عاد الى وطنه بعد طول المطاف ، وتمركز في مهد اسلافه وقوميته وديانته من جديد . هذه الدعوة التاريخية الباطلة ، التي يتسلح بها الصهيونيون ، والتي اثبتنا زيفها في بعض الصفحات السابقة . وبهـذا تصبح فلسطين - هذه البلاد العربية المقدسة - غريبة عن الوطن العربي الاكبر ، جغرافياً وعنصرياً بالاضافة الى انفصالها السياسي التام . ولا مجال بعد ذلك لازالة تلك الدولة الطفيلية ، والتخلص من ذلك العنصر الاجنبي

الطارىء الا بصراع قومي طويل الامـد ، وهو صراع الحياة والموت بالنسبة للفريقين المتقابلين فيه . وهذا ما تعد الشعوب العربية نفسها لخوض غماره ، وما سنتولى عرضه وتفصيله في فصولنا القادمة انشاء الله .

وقد يتصور البعض ان هذه الصورة التي اعطيناها « للدولة اليهودية » و « الوطن القومي » الصهيوني ، فيهـا كثير من التهويل والمبالغة . ويذهب الى القول الى انهما لا يمكن ان يكونا اشد خطراً من الامارات الصليبية التي تأسست قديماً ، ولا من السلطات الاستعمارية الحديثة التي استولت على جميع اجزاء البلاد العربية . فما لبث كلا هذين العنصرين الاجنبيين ان زالا كلّ في حينه . وجوابا على مثل هذا التساؤل ها نحن نعمد الى المقارنة بين الدولة الصهيونيـة من جهة والامارات الصليبية والسلطات الاستعمارية الحديثة من جهة اخرى .

عندما جاء الصليبيون الاول ، جاؤوا يحملون نفس الاحلام التي تجيش في اذهان الصهيونيين المعاصرين ، ويدعون ادعاءات مشابهـة لدعواهم الاساسية . اذ كانت تلك الجماعات المسيحية تدعي بحق الاوليـة في الاشراف على مهـد المسيح ، وكنيسة القيامـة ، ومناسك النصرانية المقدسة . وتعد الدول الاسلامية التي تعاقبت على فلسطين ، انها سلطات اغتصبت حقوق المسيحية هذه ، كما جعلت فروض الحج الدينية غير سهلة الاداء على نصارى الغرب بنوع خاص . لذلك جاؤوا الى فلسطين باسم اهداف بعيدة ، واغراض ثابتة . اذ كانوا يرمون الى امتلاك البلاد بحجة ضرورة فرض رقابتهم الدائمة على المناسك المقدسة فيها ، وحماية طرق الحج المسيحي ومواسمه حماية ابدية . لذا لم يكن هناك اي مطمع لوضع اي حد ذاتي لذلك الحكم الصليبي في فلسطين . وهذا ينطبق اتم الانطباق

على وضعية الصهيونية ومنهاجهم القومي الدائم الذي يرسمون خططه ويعتبرون امتلاك فلسطين امتلاكا ابديا اول الشروط الرئيسية لتحقيقه .

ان الحقيقة الاولى التي لا مجال لأنكارها في صدد هذه المقارنة هي ان الصليبين الاول الذين جاؤا الى فلسطين باسم هذه الاغراض والمبادىء لم يخرجوا بواسطة مفاوضات او معاهدات او تحكيم دولي ، بل لم يتم جلاؤهم عنها الا بعد حروب دامية عنيفة امتدت عدة قرون . وهذا ما نعتبر انه الدواء الوحيد لمعالجة الخطر الصهيوني الحديث الطارىء . وما يتحفز العرب جميعهم دولا وشعوباً لمجابهته وتحقيقه . وهو يؤيد وجهة نظرنا المبينة آنفاً .

لكن هناك نقطة ثانية لا يجب ان تغرب عن الذهن ، وهي التي تجعل الخطر الصهيوني اشد من الخطر الصليبي . وروح المقاومة عند اولئك اعنف واعمق مما كانت عليه عند هؤلاء مع مراعاة الاستعداد الفطرى للمقاومة او الشجاعة الطبيعية الموجودة لدى الفريقين . هذه النقطة هي ان الصليبين الاول رغم اتقاد حماستهم الدينية في غزوهم فلسطين كانوا يشعرون اصلًا انهم عدة شعوب وان لهم دولا مختلفة . لذلك تشعبت اغراضهم السياسية ، ومطامعهم الاستعمارية فباتوا بعد تأسيس اماراتهم المتعددة يقاتلون منفردين نسبياً ، كل يبغي المحافظة على امارته الشخصية ومطامعه الخاصة . في حين ان الصهيونيين الذين يؤتى بهم الى فلسطين ينزع من ذهنهم كل تابعية دولية او قومية سابقة لهم . فلا يعتبرون نفسهم حسب برنامج الصهيونية الحديث الا شعباً يهودياً واحداً ، يريد ان يعيش في وطنه الاصلي القومي الذي هو فلسطين ، ويعترف برعوية دولة واحدة هي الدولة اليهودية العتيدة التي يسعى لانشائها .

ان مثل هذا التفاوت في الاعتبار يجعل "مبدأ المقاومة عند الصهيونيين» اشد واصلب منه عند الصليبيين ، ما لم تعوزهم شجاعة هؤلاء روحهم الحربية الفطرية . وان الجموع الصليبية الاولى التي استوطنت في مختلف اجزاء الساحل السوري كانت كلها تحمل في ذهنها صورة وطن سعيد آخر في الغرب ، لا تعد عودتها اليه هزيمة او خسارة . في حين ان جموع الصهيونيين المعاصرين ، الذين جمعوا قصداً من حثالات الاقوام الاوروبية ، والمشردين والمتسكعين في البلدان الغربية ، والذين بذلت لهم وسائل الرخاء الموقت في المستعمرات اليهودية لا يفكرون بوطن سعيد آخر غير الوطن الذي آواهم اليه . لهذا اصبح معظمهم يعد الخروج من فلسطين هزيمة وخسارة . وبهذه الصورة نجد ان الصهيونية الحديثة وضعت لاتباعها ورعاياها ، اهدافاً ابعد وارسخ مما وضعته الصليبية الاولى لجماعاتها مع الاسف . لذا اصبح محتماً على العرب مضاعفة قواهم المادية والمعنوية لاقتلاع جذور هذا العنصر الطفيلي الذي جاء ينازعهم حقوق الحياة الاولية في بلادهم ، ويحاول تغيير معالم وطنه الاكبر وشكل قوميتهم الحقيقية ، ومجرى تاريخهم القديم والحديث .

اما اذا جئنا للمقارنة بين خطر الاجتياح الصهيوني والاستعمار الاوروبي الحديث ، فنجد أن الثاني - على ما ذقناه به من الآلام والنكبات - هو أخف بلاء من الاول من عدة وجوه واقل خطراً بالنسبة الى الاهداف البعيدة . فالاستعمار الاوروبي مهما اشتدت وطأته وعظمت سطوته ، لا يرمي الى الاستيطان نهائياً في البلاد التي يحل فيها . كما رأينا الادلة على ذلك واضحة خاصة في كثير من الاقطار العربية . اما الاجتياح الصهيوني فهو لم يدخل الى فلسطين ليخرج منها بعد فترة

طويلة أو قصيرة من الزمن ، بل يعتبر عودة شعب اسرائيل الى تلك البلاد امراً طبيعياً كان يجب أن يتم منذ بضعة قرون من قبل . وان بدخول ملايين اليهود الى وطنهم التاريخي هذا تكون هذه المسألة قد وجدت حلها النهائي الذي لا يحتاج الى تحويل أو تبديل .

نعم انــه من المعلوم ان من جملة مناهج الاستعمار الاوروبي ، اضعاف الروح القومية في البلدان المستعمرة وادخال آراء ومبادىء مغايرة لها على عقلية الشعب . لكننا لم نجده يوماً من الايام سعى الى محو القومية الاصلية لينشيء قومية جديدة عوضاً عنها . كما اننا رأينا بعض الدول المستعمرة تحمل الى البلدان الخاضعة لحكمها عدداً كبيراً أو صغيراً من ابنائها ، ليكونوا لهم جاليات اجنبيــة قوية في تلك البلاد . لكننا لم نشهد أية دولة استعمارية قط حتى ولا ايطاليا في ليبيا أو فرنسا في المغرب الاقصى قامت بحركة هجرة اجماعية اكتساحية ترمي الى نقل شعب بكامله الى البلاد المستعمرة فيكون اكثرية السكان ويصبح هو صاحب الحق في السلطات الشعبيــة من جميع الوجوه ، على نحو ما يفعل الصهيونيون الآن في فلسطين .

ثم اننا نعلم ان من اهم اغراض الاستعمار الحديث ، استثمار مرافق البلاد الاقتصادية ، وثرواتها الكاملة . لكننا لم نجد اية امة مستعمرة قامت بحركة تملك اراضي البلاد المستعمرة تملكا تاماً بحيث تترك الشعب الاصلي لاملك له ولا وسيلة للعيش ليسهل اعتباره انه اصبح بلا وطن في بلاده الاصلية ومهد آبائه واجداده .

ومهما توسعنا في وجوه المقارنة ، فان الاستعمار الاوروبي ، لايعدو كونه « ضيفاً » ثقيل الظل بعيد المطامع يحل في بلد غير بلاده فيبتز

خيراتها قسرا ويفسد طبائع اهلها ليسهل عليه اخضاعهم لارادته وسلطانه. لكنه لابد له من الرحيل يوماً ما على وجه من الوجوه سيان اترك البلاد وراءه جحيما واريا ام جنة وارفة ، وسيان كان خروجه بناء على معاهدات ومساومات داخليـــة ، او بناء على مصرعه في التطاحن الاستعماري العام في الخارج .

اما الاجتياح الصهيوني فهو يدخل البلاد بكل وقاحة ، فتكون اول بادرة تبدر منه هو ان يعتبر سكانها الاصليين ، « ضيوفاً ثقلاء » يسعى لطردهم من « منزله » بكل ما اوتيه من الوسائل والذرائع ، ولايفكر في الرحيل قط ، لانه يعتـــبر نفسه المالك الشرعي والعملي لتلك البلاد المنكودة الحظ ، ولانه يسعى ان يصبح صاحب الاكثرية الحقوقية التي تقرر مصير البلاد وسكانها في وقت مـا . ومهما تعددت الاحداث الدولية فلا مطمع بانهياره وهزيمته ما لم يصب بالهزيمة الداخلية والانهيار التام في نفس تلك البلاد .

هذا هو الخطر الصهيوني بحقيقته العارية المجردة . يجمع جميع مآسي الاخطار المشابهة له . ويزيد عنها بكونه حركة استيطان داخلي دائم ، لامطمع بوضع حد زمني له . وبان اغراضه لاتقتصر على استثمار خيرات البلاد فقط ، بل تتعدى الى تحويل جنسيتها وتاريخها ، وتغيير كيانها وسكانها ، واستبدال شعب بشعب وانشاء قومية على انقاض اخرى وامة على اشلاء امة ثانيـــة . فهل بعد هــذا زيادة لمستزيد في الشر ؟ ؟ ؟

الصراع الأممي

ومستقبله في فلسطين

العوامل المحلية والتيارات الدولية ـ تهديد السلام العالمي ـ ميزان القوى المتقابلة ـ قوى المنظمات اليهودية ـ عناصر التفوق العربي ـ مزايا العرب العسكرية ـ النضال الطويل وبحر الدماء العربي .

ها نحن الآن قد اصبحنا امام المعركة الكبرى الدائرة حالياً في فلسطين ، بعد ما اوضحنا في الفصول السابقة العوامل البعيدة والمتشعبة التي ساقتنا اليها او ساقتها الينا . كما ان الامة العربية ايضاً قد دخلت هذه الجولة الحاسمة من الصراع الرهيب ، بعد ما استنفذت اساليب العمل السلمي ، والمفاوضات والمساومات . لذا وجب علينا في هذا المقام من البحث ان نوضح ماهية هذا الصراع الذي نخوضه بكل مالدينا من القوى ، ونحدد حقيقة هذه المعركة ومداها ، والخصم – او الخصوم – الذين نلتحم معهم في ملحمة تنازع البقاء والفناء . . .

لقد اكثر الخطباء والكتاب والبحاث – في الشرق والغرب – من الكلام عن ماهية البركان المضطرم حالياً في فلسطين ، وايضاح اهميته وخطورته ، وما يتوقع ان يسفر عنه من النتائج البعيدة والمتشعبة . ومع هذا فلا يزال الموضوع بحاجة الى عرض علمي دقيق ، يكشف ملابساته الكثيرة ، ويحيط بتشعباته العديدة . فهو رغم ما اتضح من خطره ، وعرف من اتساع نطاقه ، لايزال في حقيقته اعمق اغواراً من ظواهره . واوسع مدى من حدوده الشكلية التي يتناولها البحث العادي .

نعم : ان من المعروف حتى لدى عامة الناس في مختلف بقاع الارض . ان المعركة الدائرة في فلسطين ، لاتنحصر بسكان فلسطين فقط من العرب واليهود . بل ان وراء كل فريق من هذين العنصرين المتطاحنين في تلك الاراضي المقدسة ، ملايين من ابناء جنسهم خارج حدود فلسطين ، يعتبرون ان مصائرهم حيثما كانوا مرتبطة بنتائج هذه المعركة سيان كانت لهم او عليهم . لذا نجد العرب واليهود على السواء يزجون بجميع قواهم المادية والمعنوية الى ميدان الصراع ، بغية كسب الظفر فيه ، وتحقيق اهدافهم القومية الخاصة .

ولكن هذه الاعتبار على ما فيه من توسيع النطاق ، لايرسم الحدود النهائية والصحيحة لمعركة فلسطين الراهنة . لان وراء العرب واليهود ايضاً ، قوى اخرى في العالم ، ان لم تعتبر نفسها فريقاً حقيقياً في هذا الصراع ، فهي لاتستطيع انكار كونها ذات مصلحة حيوية ومباشرة فيه . ومرد ذلك الى ان اليهود – لما يعرفونه بأنفسهم من الضعف – لم يستطيعوا قط ان يقفوا لوحدهم كفريق مستقل بذاته في سائر ادوار القضية الفلسطينية ، السياسية او النضالية . بل كانوا دائماً يتسترون وراء احدى

الدول الاستعمارية الكبرى - او وراء عدد منها ايضاً - ليتخذوها اداة لتحقيق مطامعهم الحرقاء، او ترساً يحتمون وراءه ازاء تيار القوى العربية التحريرية التي تأبى لهذا العنصر الطفيلي التمركز في صميم كيان الوطن العربي . وقد اتضح ذلك جلياً في الحرب العالمية الاولى ومابعدها عند كانت الحركة الصهيونية تسير في ركاب الاستعمار البريطاني ، الذي استعانت به للتغلغل والتمركز في فلسطين . ثم في الحرب العالمية الثانية وما بعدها ايضاً ، اذ تحول الصهيونيون نحو الولايات المتحدة ، يغذون مطامعها الامبريالية الجديدة ، لاسيما في الشرق الاوسط ، ويستغلونها لتحقيق الشطر الثاني من حركتهم العدوانية هذه ، وهو انشاء الدولة اليهودية في الاراضي المقدسة ...

ومن البديهي القول أن دخول هاتين الدولتين الكبريين في صلب المسألة الفلسطينية ، وانحيازهما الى فريق دون آخر في النزاع القائم ، كان لا بد له من ان يفسح المجال لغيرهما من الدول الكبرى ذوات المطامع والمنافع ، لولوج هذا المضمار بصورة سلبية او ايجابية ، سيان كان ذلك بدافع المنافسة الاستعمارية ، او الحرص على حفظ التوازن ، او ما شاكل ذلك من الاغراض .. وهذا هو الذي اقحم المانية النازية في المسألة في الماضي ، وادخل روسيا السوفياتية في الوقت الحاضر .

لذا نجد أن الصراع القائم حالياً في فلسطين ، هو صراع أممي بالواقع ، يتعدى بطبيعته جميع الحدود المحلية أو الاقليمية ، أو العنصرية . ويقفز فوراً ومن مراحله الاولى ، الى مصاف الازمات الدولية ، التي تتشابك فيها المصالح الكبرى ، وتتضارب المبادىء العالمية ، وتصطرع النزعات التوسعية . سيان كانت استعمارية صريحة ، أو

استثارية مقنعة . وهذا ما يحتم على كل فريق أو ذي مصلحة فيه ، ان يمعن النظر في آفاق هذه المعركة الكبرى ، ويدقق في خوافيها قبل ظواهرها ، ويذخر من القوى ما يؤهله لمجابهة كل مفاجأة تظهر خلالها ، بما تقتضيه من العمل السريع الحاسم .

واذا كان اخصام العرب من الصهيونيين وانصارهم قد أحكموا مثل هذه الخطط والفوها ، أو هم على استعداد لها سلفاً ، فان العرب ليسوا بغفلة عن هـــذه الامور ايضاً ، وان فاتهم بعض الوسائل المادية او لاستعداد الفعلي المسبق . لانهم وهم في دور نهضتهم القومية الشاملة هذه ، قد تجاوزا كل اعتبارات موضعية او شكلية ، واصبح لديهم هدف واحد وشعار واحد ، هو تحرير البلاد العربية برمتها من كل سلطان اجنبي ، وطرد كل عنصر عربي يحاول ممارسة أي نوع من انواع السيادة في أي جزء من اجزاء وطنهم الاكبر .

وعلى هذا الاساس نجد ان العرب على اختلاف ديارهم وامصارهم ، ينظرون الى قوافل المهاجرين الصهيونيين كغزاة معتدين ، لا لأنهم يهود ديناً او جنساً . بل لانهم يمثلون الدول الاوروبية الاستعمارية التي هم – اي العرب – في حالة حرب تحريرية معها منذ اكثر من نصف قرن . ولو فرضنا انه لم يوجد بين اولئك الغزاة من يمثل بريطانيا ، او اميركا ، او روسيا ، او فرنسا ، او غيرها ... بجنسيته السياسية – مع وجود جميع هؤلاء فعلاً – فهم يعتبرون كل قافلة يهودية ، او مؤسسة ، او جماعة ، مهما كان نوعها ، تمثل الدول الاستعمارية كلها مجتمعة ومنفردة ، ومتفقة او متضاربة لانها تحمل معها مطامعها الاقتصادية ، والامبريالية ، والاستراتيجية ، وما يتصل بها من الشؤون .

كما ان ثورة العرب المضطرمة حالياً لاتستهدف طرد نفايا الصهيونية من فلسطين فقط ، لتسكت بعد ذلك عن استقرار اي سلطة اجنبية اخرى بدلا عنهم . بل هي ترمي ـ كسائر حركات العرب التحريرية في جميع الاقطار ـ الى تحرير هذا الجزء الغالي من الوطن العربي الاكبر ، تحريراً كاملاً صحيحاً . ولن نتحاشى مجابهة اية قوة اجنبية توجد حالياً في فلسطين ، او قد تظهر في المستقبل ، اذا كانت هذه القوى تعترض سبيل حركة التحرر العربية .

وبذلك تكون المعركة الراهنة في فلسطين معركة بين الشرق والغرب منذ بدايتها ، وتجديداً للصليبية الاولى كما ذهبنا الى القول أصلاً في هذا الكتاب . واذا ظلت الدول الغربية ـ على ما بينها من اختلاف في المصالح ـ متفقة على موقف موحد ضد ثورة العرب التحريرية هذه ، تبقى المعركة على هذه الصفة الى النهاية . اما اذا لعبت المنافسات الاستعمارية والتوسعية دورها بين تلك الدول الجشعة ، فان ميزان النزاع هذا قد يختلف اختلافاً خطيراً ، لايعلم كنهه ومداه الا الراسخون في العلم . . . !!

فاذا قال قائل ـ بعد تبيان هذه الحقائق الواضحة ـ ان الازمة المستحكمة حالياً في فلسطين ، قد تؤدي الى تهديد السلام العالمي بالفعل ، فلا يجب ان يحمل قوله هذا على محمل المبالغة او التهويل . بل الواقع ان معركة فلسطين العتيدة ، اذا اطلق لتيارها العنان ، قد تتحول الى شرارة لا تعتبر « سيراجيفو » ولا « دانتزيغ » امامها شيئاً . وقد تحول الشرق الاوسط بكامله الى اتون مضطرم الاوار ، ولا تلبث ان يمتد شواظها الى ماوراء حدود الشرق الاوسط ايضاً ،

لاسيا وان المصالح الدولية الكبرى اصبحت تتنازع وتتناحر الآن في هذه البقعة من العالم ، او في ما يحيط بها .

وهذا ما لفت قادة العرب انظار العالم اليه من قبل صدور قرار التقسيم المشؤوم ، الذي كان الجذوة الاولى في ايقاد نار هذه المعركة . وليس على العرب اي لوم او تثريب في هذا الشر المستطير ، لانهم مجبرون على خوض غماره مدافعين لا معتدين . ولا مجال لأن يطلب منهم هم المهادنة او التفادي ، لان الخطر يهدد كيانهم القومي والسياسي ، والاقتصادي ، بالفناء والدمار والبوار . وهم اذا كانوا قد جمعوا معظم قواهم النضالية لخوض هذه المعركة حتى النهاية ، فهذا يعني انهم على استعداد للفناء التام دون غاياتهم القومية القصوى ، التي لا يمكن التخلي عنها . لكن فناءهم في مثل هذا المعترك ، سيكبد العالم بأسره من الخسائر والمآسي ، ما لا تستطيع الصهيونية الطفيلية الجشعة ان تعوض جزءاً يسيراً منه ، ولا ان تحيا هي على وجه الارض بعد وقوعه ..

ميزان القوى المتقابلة

بعد أن القينا نظرة عجلى على الصراع الامي الذي ينتظر احتدامه وشيكاً في فلسطين ، وأوضحنا ما ينتظر ان يجره من الذيول وما ينطوي تحته من التيارات البعيدة الآفاق ، نميل الآن الى دراسة القوى المتنازعة او المتقابلة فيه ، فنقدر قيمها ، ونسبر امكانياتها ، ونوازن بينها موازنة تقريبية ، تمكن القارىء ان يخرج من كل ذلك بحكم على النتائج المرتقبة التي يرجح ان تسفر عنها هذه المعركة الرهيبة التي يبدو انه لم يعد ثمة مجال لتفاديها .

يبدو في ظاهر الامر ان معركة فلسطين ستدور بين العرب واليهود ،

ذلك بوصفها الفريقين الاساسيين في النزاع ، ولان كلاً منهما يدعي لنفسه حق الاولية بملكية هذه البلاد ، وممارسة السيادة القومية عليها ، مما لا مجال لنا لمناقشته في هذا المقام .

لكنه لما كان هذا الصراع المرتقب دولياً وأممياً بالواقع ، لا محلياً او ثنائياً فقط ، كما اثبتنا ذلك آنفاً ، نجد ان ثمة قوى اخرى لا بد لها من ان تزج نفسها في هذه المعركة بصورة من الصور ، سيان كانت مكرهة او مختارة ، وملزمة او متطوعة .

والبرهان الحسي الاول على ذلك ، هو ان السلطة العليا في البلاد بالوقت الحاضر ليست بيد العرب ولا اليهود . بل هي بيد الدولة البريطانية كما هو معلوم . والمسؤولية الدولية والمعنوية – الى جانب المسؤولية المحلية الفعلية – مناطة بهذه الدولة ايضاً ، بصفتها هي السلطة المنتدبة على هذه البلاد رسمياً . فهل تستطيع هذه الدولة الكبرى ان تقف مكتوفة الأيدي ازاء نشوب الملاحم العنيفة داخل بلاد هي مسؤولة عنها ؟ ام هل يتحتم عليها التدخل في هذه المعركة ، وكيف يكون تدخلها المنتظر ياترى ؟

لقد كفتنا السلطات البريطانية العليا – جزئياً – مؤونة الجدل حول هذا الموضوع . اذ اعلنت بصراحة ووضوح انها تعتبر نفسها مسؤولة عن الامن في فلسطين ما دامت هي السلطة المنتدبة على هذه البلاد . لكنها تخلصاً من ان تجر نفسها الى غمرة هذا الصراع المتشابك العنيف ، قررت انهاء انتدابها في صيف هذا العام ، كما قررت سحب جميع قواتها العسكرية في شهر مايس منه على الترجيح . وبهذا تخرج احدى القوى الرئيسية المشتركة في هذا الصراع ، او المختصة على الأقل ،

في وقت معين اصبح موعده قريباً . اما حتى يجين ذلك الموعد المضروب فهي تعتبر طرفاً رئيسياً فيه ، ولا بد لكل من يبغي القيام باعمال عنيفة في فلسطين خلال هذه المدة التي تسبق موعد الجلاء ، من ان يحسب حساب الاصطدام معها .

لكننا اذا القينا نظرة عجلى على الماضي القريب ، نستطيع ان نتبين على ضوء الوقائع المثبتة ، المعنى الحقيقي للمسؤولية البريطانية المزعومة ، او ضرورة استخدام القوات البريطانية للمحافظة على الامن. ففي الفترة التي امتدت بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ قام العرب بأول ثورة اجماعية لهم ضد تمادي الطغيان اليهودي في بلادهم . فكان ان تحولت تلك الثورة الى الى صراع عسكري عنيف بينهم وبين القوات الانكليزية التي وقفت تحمي اليهود بسائر ما لديها من الوسائل ، واستعملت مع العرب منتهى الشدة والقسوة . حتى ان العثور على طلق ناري واحد مع شخص عربي في تلك المدة كان كافياً لاعدامه ، كما ان مقتل ضابط بريطاني في بلدة عربية كان يقابل بنسف معظم احياء تلك البلدة ، دون عناء تفتيش او تحقيق.

اما في الفترة الواقعة بين ١٩٤٣ - ١٩٤٧ ، وهي فترة الارهاب اليهودي ، فقد استعمل الانكليز فيها منتهى رباطة الجأش ، والحكمة ، والروية .. !! وارتضوا لأنفسهم بالهزيمة والعار امام المنظمات اليهودية السرية ، ليتجنبوا التعرض لنقمة زعماء الصهيونية ، اذا اتخذوا التدابير الفعالة لقمع حركة الارهاب الغادر .. !

فمثل هذا الموقف المتناقض يؤكد صراحة أن معنى المسؤولية البريطانية في المحافظة على الامن في فلسطين ، هو المحافظة على اليهود ضد اعتداء العرب . وان تقيد السلطات البريطانية بالتزامات صك

الانتداب « المرجوم » هي التقيد بالتزاماتها ازاء الصهيونية العالمية ، التي قيدتك الانتداب هذا بشرط مراعاة مصالحها . ومن هذا التفسير الذي تثبته الوقائع ، نستطيع ان نصل الى نتيجة منطقية ثابتة ، هي ان القوات البريطانية ـ طوال مدة بقائها في فلسطين ـ ستكون واقفة في وجه العرب ، ان لم نقل انها الى جانب اليهود . ولعل السبب في اصرار الدوائر المركزية العليا على استعجال سحب القوات البريطانية من فلسطين ، هو الرغبة بالتخلص من هذا الموقف المشين ـ او غير المستحب ـ الذي فرضته السياسة الملونة على بريطانيا في الوقت الذي تشعر أنها باشد الحاجة الى صداقة العرب ومعونتهم .

على أن خروج القوات البريطانية من فلسطين ، قد لا يترك المعركة حرة بين العرب واليهود بصورة مطلقة . او هذا ما يسعى الفريق الثاني الى تداركه بالواقع ، نظراً لجبنه وعجزه . فالولايات المتحدة قد تبنت الحركة الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها . وهيئة الامم المتحدة ـ بناء على طلب اميركا وروسيا ـ قد اقرت مشروع تقسيم فلسطين في سبيل ايجاد دولة في احد القسمين . فماذا يكون موقف هذه الدول الكبرى ، وموقف منظمة الامم المتحدة ، اذا ترك ميدان الصراع حراً بين العرب واليهود ، واذا تغلب الفريق الاول على الثاني بنوع خاص ؟؟

اذا جئنا للكلام عن « منظمة الامم المتحدة » اولا ، نجد انها خلفت المرحومة « عصبة الامم » بالشكل والواقع تماماً . فهي اسم بلا فعل ، وصورة بلا روح . تسن القوانين وتتخذ المقررات ـ اذا نجت من استعمال حق الفيتو ـ لكنها تبقى جميعها وهمية لا توضع موضع التنفيذ

لعدم وجود قوة دولية تحت تصرف هذه المنظمة . وان ماتراه من تضارب مصالح الدول الكبرى يؤكد لنا استحالة انشاء قوة دولية توضع تحت تصرفها في الوقت الحاضر . لذلك لن يرجى ظهور قوة دولية في فلسطين تنفذ قرار هيئة الامم المتحدة القاضي بتقسيم هذه البلاد المنكودة ، وتحمي الدولة اليهودية المزعومة التي هب العرب في مشارق الارض ومغاربها للقضاء عليها سلفاً ، واحباط كل محاولة ترمي الى ايجادها مهما كان نوعها ومصدرها .

ولنفرض جدلا انه امكن تحقيق المعجزة ، وانشئت قوة بوليس دولي باسم المحافظة على الامن في فلسطين . فماذا تكون النتائج الداخلية والخارجية ؟؟

ان الامر بالنسبة الى العرب جلي واضح . فهم يعتبرون كل سلطة غير عربية في فلسطين ، انها غير شرعية لابد من مقاومتها . كما يعتبرون كل اجنبي يدخل هذه البلاد ، هو غاز معتد يجب محاربته وطرده . فظهور قوة دولية يزيد في ثقل عبء النضال التحريري الذي اضطلعوا بحمله ، ويجعل مسؤولياتهم في سبيل تحقيق امانيهم القومية اكثر تعقداً واشد خطورة . وقد يستنفد طاقتهم النضالية او لا يستنفدها . كل هذا نسلم به جدلا ....

لكن كيف يقابل الفرقاء الآخرون هذا التدبير المحتمل ، مع التأكد من ان هذه القوة الدولية المفترضة ، ستضم حتماً نسبة غير يسيرة من الجنود الروس في عدادها ؟؟..

هل ترضى بريطانيا ان تنسحب قواتها من فلسطين ليحل محلهم عدد قليل او كثير من القوات الشيوعية ؟؟

وهل ترضى الولايات المتحدة ، صاحبة المناهج الامبريالية الجديدة ، والمطامع البعيدة في الشرق الاوسط بصورة خاصة ، ان تمكن روسيا من احراز موطىء قدم على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ؟

وهل تطمئن الرأسمالية اليهودية الى انشاء دولتها المنشودة في ظلال حملة المبادىء الشيوعية ؟؟

ان كل هذه الافتراضات تؤكد لنا ان هذه النزعات المتضاربة لن تستطيع ان تتفق حتى النهاية على الوقوف بوجه الاماني القومية العربية . وان التوازن الدولي الجديد لا يستطيع ان يستغني عن العرب لحساسية موقفهم فيه . وهذا يرجح لدى الباحث عدم امكان احالة العبء الذي تحاول انكلترا التملص منه ، على قوة دولية عامة او خاصة .

بقي هناك احتمال وحيد يقيد معركة الصراع بين العرب واليهود في سبيل الاستيلاء على فلسطين بقوى خارجية أخرى . وهو أن تهب الولايات المتحدة التي تبنت العطف على القضية الصهيونية الى مساعدتها عملياً في فلسطين ، وتتبنى انشاء الدولة اليهودية المنشودة تحت حمايتها ..

اننا لا نريد ان نضع هذا الاحتمال طويلاً على مائدة التشريح ، ولا ان نذكر هذه الدولة الكبرى بمبادىء واشنطن ، ولنكولن ، وويلسون ، ونظريات روزفلت ، وهي جميعها تعتبر دستور الحرية الصحيحة في العالم . لكننا نقول كلمة صريحة موجزة . وهي ان العرب تمرسوا بمقاومة الاستعمار على اختلاف قواه واساليبه . فلن يرهبوا هذه المعركة الجديدة التي تستدرجهم اليها اميركا ، اذا هي تعمدت ذلك . وهذا نضالهم ضد انكلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، وحتى اسبانيا ايضاً ، خير دليل على

انهم لن يستسلموا لهذا الطامع الجديد ، وان كانوا لايدعون القـــدرة التامة على مقارعته وصده ...

لكن اذا افترضنا انه تم لهذه الدولة الاستعمارية الجديدة ان تقهر قوى النضال العربي موقتاً ، فهل تطمئن الى الميزان الدولي العام الذي ينظر الى مطامعها الجديدة بألف عين ، ويحاسبها على كل شبر من الارض وكل قطرة من البترول ، وكل شحنة من البضائع والسلع التجارية ؟؟..

ان الطريق الذي يعترض الولايات المتحدة في معركة فلسطين ، لايقل خطورة ووعورة عما سواها على الاطلاق . وعلى كل حال ، فان اية قوة اجنبية ، غير العرب واليهود ، تحاول ان تزج بنفسها الى هذه المعركة متحيزة الى احد الفريقين ، او متخذة صفة الحكم ادعاء ، ستزيد الازمة اتقاداً وتعقداً ، وتضاعف الخطر ، وتوسع نطاق الشر . فبدلا من ان تبقى معركة فلسطين ، صداماً محلياً فقط ، تصبح بفضل – مثل هذه التدخلات – بركاناً عالمياً يهدد سلام العالم بأسره كما اشرنا الى ذلك من قبل .

والذي نرجحه ان المعركة في معظم ادوارها ـ ظاهريا على الاقل ـ ستبقى مقصورة على العرب واليهود . واذا كان ثمة قوات اخرى ترغب بالتدخل ، فهي ستنضم الى احد المعسكرين بصور تمويهية مختلفة . وستكون كلها الى جانب اليهود طبعاً ، لان هؤلاء هم الذين يستجدون المساعدة من الخارج . في حين ان العرب يعتبرون كل اجنبي يدخل فلسطين بأية حجة كانت ، بمثابة غاز معتد يجب مقاومته وطرده . وعلى هذا الاساس ستتفرغ الى تدقيق التوازن بين قوى العرب وقوى الصهيونيين ، تدقيقاً عميقاً شاملاً ، لنقدر بموجبه حكمنا على نتائج هذا الصراع الأممي الجديد الذي يحتدم حالياً في الديار المقدسة .

قوى المنظمات الصهيونية

اذا كان من الخطأ والخطر ان يجهل المرء قوة خصمه او يتجاهلها ، فمن الخطأ والخطر ايضاً ، ان يؤخذ بالتهويل والمبالغة فيها ، وان يعطيها في الحساب فوق حقيقتها اضعافاً . لانه اذا كان للناحية الاولى محاذير مادية واضحة ، لكونها تجعل المرء يدخل المعركة غير كامل الاستعداد ، فللناحية الثانية محاذير معنوية ونفسية ايضاً ، لها قيمتها الفعالة في تكييف جو المعركة المرتقبة ، لا سيما في جولاتها الاولى . وعلى هذا الاساس نريد ان نستعرض امام القاريء العربي حقيقة القوى الصهيونية التي سنجابهها في المعركة التي بدأنا باقتحام لجتها في فلسطين . معتمدين في ذلك على دراسة مراحل نشوء هـذه القوى ، وموارد تغذيتها ، والاسس التنظيمية المتبعة فيها ، ومصادر تسليحها ، وما الى ذلك من الشؤون .

كانت الجماعات الاولى من المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين في السنوات العشر الاولى من عهد الانتداب البريطاني (اي بين ١٩١٩ - ١٩٢٩) خلواً من كل صفة عسكرية ، او مظهر عنفي على الاطلاق . وقد عززوا بذلك الفكرة الوهمية التي كانت متمركزة في اذهان العرب وسواهم ايضاً ، بان الجنس اليهودي متسم بالجبن ، وابعد بني البشر عن اسباب العنف ، او اثارة الشر ، او اراقة الدماء ... !! ذلك لأن برنامجهم في تلك المرحلة كانت مقتصراً على التوسع في شراء الاراضي ، وكان تظاهرهم بالمسكنة والضعف من العوامل التي تساعدهم على تحقيق غرضهم هذا .

لكن عندما حل عام ١٩٢٩ ، بدأت العلاقات تتوتر بين العرب

واليهود . لان مطامع هؤلاء كانت قد اسفرت عن وجهها المخيف ، كما كانوا قد اخذوا ايضاً يتظاهرون بالقوة والاعتداد بالنفس . وفي شهر آب من تلك السنة حصل اول احتكاك عنفي شبه اجماعي بين الخصمين اللذين شاءت السياسة الغاشمة ان تجمعهما في دائرة واحدة . وكان سببه محاولة اليهود ادعاء ملكية جدار (البراق) الشريف من المسجد الاقصى الحرام ، باعتباره جزءاً من هيكل سليمان ، مما ادى الى وقوع اضطرابات دامية في القدس ، ما لبثت ان اتسع نطاقها ، وكان صداها عنيفاً بصورة خاصة في يافا وصفد من الحواضر الكبرى . وبالرغم من ان اليهود قاموا بعدة هجمات موضعية خلال تلك الاضطرابات ، وظهروا بمظهر الجماعات المسلحة – الى حد ما – الا انهم لم يقوموا باعمال تدل على وجود تنظيم عسكري خاص لديهم ، ولا على استعداد عملي لاقتحام ميدان النضال العنفي حتى النهاية (١)

وفي سنة ١٩٣٢ اشتد امر الحركة النازية في المانيا . تلك الحركة التي كان من اول اهدافها مكافحة اليهود مكافحة تامة ، وتشريدهم من بلاد الريخ . فكان لذلك تأثير عكسي على حالة اليهود بالنسبة الى فلسطين مع الاسف . اذ ضاعف حماستهم من اجل تأسيس دولة لهم في هذه البلاد المنكودة ، كما ادى الى حمل الموجات الكبيرة من المهاجرين الذين فروا من الاضطهاد النازي ، وكثير منهم يحمل روح العسكرية الالمانية العنيفة . فأدى ذلك الى ظهور نواة منظمات عسكرية يهودية في فلسطين .

ومرت سنوات ثلاث وموجات المهاجرين اليهود – لا سيما من المانيا –

---

(١) راجع كتاب : فلسطين العربية (ص ٢١) للمؤلف

تتدفق على فلسطين . وكان العرب يلاحظون في تلك الفترة نشاط اليهود التنظيمي ، وتزايد « فرقهم الرياضية » وتأسيس منظمات كبيرة مختلفة في المستعمرات الزراعية والمدن . ومما زاد في ريبة العرب ، هو ان هذه المنظمات - التي كانت تضم زهرة الشباب الصهيوني - لم تعد تقتصر على الظهور بمظهر الفرق الكشفية او الرياضية فحسب . بل أخذ افرادها يتدربون جهراً على النظام العسكري ، كما كانوا يتدربون دوماً على عمليات اطلاق النار واستعمال الاسلحة . وكان أهم هذه المنظمات ، فرق « الهستدروت » التي تضم جمهرة العمال .

وفي مطلع عام ١٩٣٦ كانت استعدادات الصهيونيين العسكرية في فلسطين قد اصبحت مكشوفة واضحة . وتحول كثير من مستعمراتهم الى معسكرات تدريب علنية . واكتشفت على طريق التصادف في هذه الفترة ، بعض البضائع المستوردة الى ميناء يافا باسم تجار من اليهود ، فاذا بها عنابر من الاسلحة الفتاكة . ودل التحقيق على ان ما عثر عليه في تلك المصادفة ، كان حلقة من سلسلة طويلة من المشحونات ، كانت تأتي بصورة سلع وبضائع عادية ، وهي بالواقع اسلحة نارية يعدها هؤلاء الدخلاء للفتك بالعرب الآمنين .

عند ذلك لم يعد لدى العرب في قوس الصبر منزع . وتيقنوا ان اليهود الذين جاؤا ينتزعون اراضيهم من ايديهم بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، باتوا الآن يكاثرونهم في العدد ، ويجابهونهم بالقوة . وانهم سوف لن يقفوا عند حد ما قبل ان يصبحوا هم العنصر الحاكم في البلاد ، لهم السيادة وفي ايديهم السلطة . فلم يعد لدى العرب سبيلاً غير مجابهة الشر بالشر ، والقوة بالقوة .

فانطلقت شرارة الثورة العربية الكبرى في فلسطين عام ١٩٣٦ ، وحاول العرب في بدئها ان يجعلوا النزاع محصوراً بينهم وبين اليهود . فاذا بالقوى البريطانية تعترض سبيلهم هذا باسم المحافظة على الامن ، والقيام بمسؤوليات الانتداب . وسرعان ما انقلب الموقف الى صراع عنيف بين العرب المجاهدين والحكومة البريطانية . امتد قرابة ثلاث سنوات . فألهب العالم العربي بأسره بروح النقمة والسخط على تسخير قوى الاستعمار الاوروبي لخدمة الصهيونية الماكرة . وجرى خلاله من وسائل البطش والارهاق ، وقتل الآمنين صبراً ، وتدمير القرى والاحياء العربية بالجملة ، مانمسك عن ذكره الآن تجنباً للاستطراد .

فما كان من اليهود في ابان هذا الاضطراب العظيم ، الا ان استغلوا فرصة انشغال العرب والانكليز ببعضهم بعضاً ، لتقوية انفسهم ، ومضاعفة تسلحهم ، وزيادة استعدادهم العسكري ، بدعوى الدفاع عن كيانهم ، مع وجود اعظم امبراطورية معاصرة تتبنى مهمة هذا الدفاع . فحملوا السلطات البريطانيــة على انشاء قوة يهودية خاصة باسم (بوليس اضافي) زعموا ان مهمتها حراسة المستعمرات اليهودية . فكان ان قدمت الحكومة الفلسطينية لهذه القوة الصهيونية ، السلاح والعتاد واللوازم ، والرواتب ، مع ضباط مدربين . حتى اصبحت قوة عسكرية نظامية ، بلغ عدد افرادها زهاء ثمانية آلاف جندي ، كانوا بمثابة هبة من بريطانيا للدولة اليهودية العتيدة . يضاف الى ذلك ما وزع على السكان المدنيين من الاسلحة ، وما شحنه اليهود من المعدات الحربية من الخارج ، بحجة وجود اضطرابات في البلاد ، دون ان يجدوا من السلطات « المسؤولة عن الامن » اي وازع او رقيب ..

وعندما اعلنت الحرب العالمية الاخيرة ، ابى العرب في فلسطين ان يطعنوا حلفاءهم من الخلف . فتنادوا الى القـاء السلاح ، وارجاء مواصلة نضالهم التحريري الى ظروف اخرى . فانتهت بذلك ثورة فلسطين الكبرى بصورة اختيارية من قبل العرب . لكننا اذ اتينا لندقق في نتائج تلك الثورة ، نجد انها كلفت العرب زهاء ثلاثة آلاف شهيد ، كما تركت منهم في غياهب السجون بضع مئات من خيرة الشباب ، لا يزال معظمهم مغلولا حتى يومنا الحاضر . وهدمت عشرات القرى الآهلة ، والحقت الاضرار المادية بما لا يشمله الوصف والاحصاء . في حين ان اليهود ظلوا ممتنعين وراء حراب الجنود الانكليز ، الذين تكبدوا الخسائر الجسيمة بالارواح هم ايضـاً بدلا عن الصهيونيين . وانشأوا لهم نواة قوة نظامية باسم (البوليس الاضافي) وضاعفوا استعداداتهم الحربية كما ذكرنا آنفاً ، مستغلين ظروف الحرب الداخلية في البلاد ، دون ان يصيبهم من المكروه الا قليلا ..!!

واندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية ، فبادر اليهود الى استغلال تيار الخراب والدمار فيها لأجل مصالحهم الخاصة الجشعة . وحشدوا جميع مالديهم من القوى المادية والمعنوية لا لمحاربة المانيا النازية فقط ، بل لاغتنام الفرصة الذهبية لانشاء دولتهم الاسطورية في فلسطين ، ولو على انقاض العالم بأسره . فاتبعوا في سبيل ذلك طريقان :

(الاول) تطوع اكبر عـدد ممكن من ابناء جلدتهم في صفوف الدول الحليفة ـ وخاصـة اميركا وانكلترا ـ باسم المجهود الحربي المشترك . ودفـع جموع هؤلاء المتطوعين الى ميادين الشرق الاوسط بشتى الحيل .

(والثاني) استغلال قضية المشردين والمنكوبين ، لايوائهم في فلسطين . حيث أمكنهم بهذه الوسيلة ان يجمعوا العناصر الفوضوية الخطرة ، التي تمرست بفنون الارهاب والتدمير في منظمات المقاومة السرية ضد الالمان في اوروبا .

وبهذه الوسائل اتمت الصهيونية العالمية تعبئتها العسكرية الكبرى داخل فلسطين وما حولها في وسط اتون الحرب المضطرم ، وذلك تحت ستار المشاركة بجهود الحلفاء الحربي . فكان أن ظهرت منظمتا (شترن) و (زفاي ليومي) الارهابيتان داخل فلسطين بنتيجة هذه التعبئة السرية . وما لبثتا في عام ١٩٤٢ ان بدأتا تجهران بمطاليبهما بانشاء الدولة اليهودية خلال الحرب ، ليكون للشعب اليهودي مقعد خاص في مؤتمر السلام العتيد ...!!

ثم لما اشتد خطر الهجوم الالماني في الشرق الاوسط ، لا سيما في الصحراء الغربية في مصر ، هبت الوكالة اليهودية تعرض على السلطات البريطانية « خدماتها » ... فتعهدت بتشكيل فرقة كاملة من متطوعي اليهود ، تشترك في صد هجوم رومبل ، وتكون مسؤولة بصورة خاصة عن صيانة الامن في فلسطين ، اذا تمادى خطر ذلك الهجوم الى حد ابعد من العلمين . فكانت هي الفرصة الذهبية المنشودة لتأسيس نواة جيش « الهاغانا » الذي يباهي الصهيونيون به ، ويعتبرونه جيش الدولة اليهودية العتيدة ...

وباسم السلامة الموحدة ، ومجابهة الخطر المشترك ، امد الحلفاء – من الانكليز والاميركان – المنظمات اليهودية العسكرية بجميع ما يحتاجون اليه من السلاح والمعدات . بل انهم رحبوا بتحويل بعض معامل « تل

ابيب » الى مصانع حربية ايضاً، في سبيل تعزيز مجهود الحلفاء الحربي .. يضاف الى هذا « اشاعات » كانت تروج خلال الحرب ، عن اختفاء لواء كامل من المتطوعين البولونيين ، دخل فلسطين في عداد قوى الحلفاء التي كانت تتجمع في الشرق الاوسط ، لكنه لم يخرج منها ، ولم يعرف مقره فيها ..!! «واشاعات» اخرى عن وحدات اميركية ، كانت تمر من فلسطين الى ميادين الحرب الاخرى في الشرق الاوسط والاقصى ، فتبقى مدة اسبوعين فقط ، و « تفقد » خلالها معظم معداتها الحربية الخفيفة ، ان لم يكن كلها ...

ونحن اذ نسوق هذه المعلومات ، لا نقصد في ذلك الاتهام او التحامل ، بل نرمي الى تعيين مصادر قوى هذه المنظمات اليهودية ، التي يملأ الصهيونيون الدنيا عجيجاً وضجيجاً بالاعتداد بها . ويصورونها للملأ انها وليدة نضال الشعب اليهودي ، ورمز تفانيه في سبيل تأسيس دولته المنشودة على سواعد ابنائه . في حين انها قوى غريبة محضة ، جهزتها الدول الاستعمارية ، وساقتها الى فلسطين بوسائلها الخاصة كجيوش محاربة في سبيل مبادىء الحرية والعدالة . وامدتها بالسلاح والعتاد ، والمعامل ايضاً ، لتكون اداة دفاع عن السلم . فاذا بالمنظمات الصهيونية تحولها الى قوى فتك وارهاب ، وتجعلها اداة شر واعتداء ، حتى انها حولت سلاحها الى المصدر الذي امدها به ، لا الى العرب فقط ....

وبعد فهذه هي حقيقة قوى المنظمات اليهودية في فلسطين ، التي تملأ الخافقين بالضجيج والعجيج . انها نتيجة عشرين سنة كاملة من الحشد والتعبئة . ووليدة ظروف خارجية خارقة العادة ، هي موجات الاضطهاد النازي في اوروبا ، ثم الحرب العالمية الاخيرة . واننا لانريد

ان ندقق في قيمتها من الناحية العددية ، بل من حيث فعاليتها وامكانياتها وقابليتها للنمو او النقصان .

اذا بدأنا باعتبار العوامل الخارجية اولا ، نجد ان الظروف الخارقة التي ساعدت على تضخم قوى المنظمات اليهودية بالشكل الذي تضخمت به خلال السنوات العشر الاخيرة قد زالت تماماً . فلم يعد ثمة موجات من الاضطهاد توجه اليهم في اوروبا لتدفع بالعناصر المتفوقة والقوية منهم للخروج من مواطنها الاصلية ، واللجوء الى فلسطين لتعزيز قوى المنظمات الارهابية فيها . وليس اسراب المهاجرين الذين يجمعهم سماسرة الوكالة اليهودية الا من الاطفال والعيال ، يستخدمونهم للدعاية واستجداء عطف الرأي العام الدولي من جهة ، ثم لمكاثرة العرب بالنسبة العددية من جهة اخرى . وليس بين هذه الاسراب الكبيرة الا النزر اليسير من اصحاب المزايا العسكرية ، كما اثبتت انباء بواخر المهاجرين غير الشرعيين المصادرة .

واذا كانت الاوضاع العالمية ستجنح الى السلم والاستقرار - كما يجب ان يكون - فلن يوجد بين يهود الغرب الكثير ممن يرضى بالنزوح عن وطنه الاصلي في سبيل الهجرة الى ارض الميعاد ، لا سيما وقد انقلبت هذه الارض الى اتون مضطرم ، ينتظرهم فيها الموت الصاعق ، لا الحياة الناعمة التي كان يبشرهم بها زعماء الوكالة اليهودية المضللون . كما ان زوال ظروف الحرب والحمد لله ، قد قطع عن الصهيونيين موارد الوحدات العسكرية الكاملة ، التامة التدريب والتجهيز ، وفيض السلاح الكثيف الذي كانوا ينعمون به من قبل . اما الامدادات الموضعية التي يستطيعون تأمينها من مصادرهم المحلية ، فهي محدودة

الطاقـة ، لا يمكنها ان تعوض عن فقدان هذه الموارد الاساسية الا يسيراً .

لذا نستطيع ان نقول : ان قوى المنظمات اليهودية هي قوة مخزونة مهيأة بعامل الزمن ، وعوامل استثنائية مضت . وقد بلغت ذروتها القصوى قبل نشوب المعركة الحاسمة التي نخوضها معها حالياً في فلسطين . فتكون والحالة هذه ستأخذ طريقها الانحداري بالنسبة الى الخط البياني ، وتدخل في دور النقصان من جراء ما ستتعرض له من الخسائر المحتمة ، دون أمل لها في الزيادة ابان المعركة . وهي بكل هذه الاعتبارات على نقيض القوى العربية التي لا تتمتع بتنظيم سابق ، ولم تبلغ حد الكمال قبل المعركة . لكنها تضمن النمو والزيادة ، واستمرار فيض الامدادات الدائم – لا سيما في الرجال – في ابان هذا الصراع الضاري ، لعوامل سنبينها فيما بعد .

نأتي بعد ذلك الى دراسة امكانيات القوى الصهيونية ، ومجالي فعاليتها الحربية في الصراع الكبير المرتقب بينها وبين العرب . وهنا ترتسم امام الناظر خيالات الارهاب الصهيوني ، وصدى اعمال الفتك والتدمير التي قامت بها تلك المنظمات خلال السنوات الثلاث الماضية داخل فلسطين وخارجها . فيتصور المرء للوهلة الاولى ان هذه القوى تتمع بامكانيات خارقة للعادة من حيث التجهيز والوسائل العسكرية ، وتتجلى بصفات نادرة من الجرأة والتنظيم ، والخبرة في تسديد الضربات الحاسمة . لكن هناك فوارق كبيرة بين هذه الصورة الخيالية المجموعـة خطوطها من حوادث الارهاب الفردية السالفة ، وبين حقيقة امكانيات هذه القوى في المعارك الكبرى المكشوفة ، كما سنوضحه فيما يلي :

لقد اكتسبت المنظمات الصهيونية هذه الشهرة الجوفاء من اعمال معينة قامت بها خلال السنوات الاربع الماضية . لكن تلك الاعمال كانت ترتدي طابعاً معيناً لم يتغير . هو طابع المفاجآت السريعة ، القصيرة الامد ، والعظيمة الصدى . وكانت كلها مقتصرة على حوادث الاغتيالات ، ونسف المؤسسات العامة ، والترويع والتهويل . مما تغلب عليه صفة الحوادث الافرادية ، رغم انتساب مقترفيها الى جماعات منظمة ، هي التي ترسم لهم الخطط ، وتهيء لهم الوسائل ، وتمدهم بالمساعدات والضمانات .

ومهما اردنا ان نتبع التجرد في تحديد ماهية تلك الاعمال ، لانستطيع الا ان نقرر بانها نزوات اجرامية ، لا حركات نضالية . تدل على نفسية الجبن والشعور بالعجز لدى منظميها ، اكثر مما تدل على جرأة او بسالة او كفاءة حربية . اذ ما هي القيمة العسكرية لتدمير بناء كبير يذهب تحت انقاضه عشرات الضحايا الابرياء بصورة يشمئز لها الشعور الانساني استنكاراً . ثم ما هو دليل القوة في ان تأتي جماعات استغلالية انتهازية ، تحاول تأسيس دول وممالك لاشباع مطامعها وشهواتها ، فتدفع بفئة من الاغرار والشذاذ والمرتزقة ، الى اغتيالات دنيئة ، واطلاق النار في الشوارع الآمنة على غير هدى ، في حين ان الدافعين يظلون متسترين وراء الحجب ، قابعين في اوكارهم لا يظهرون الى حومة النضال .

ان العرب لايعجزون عن القيام بمثل هذه الاعمال . لكنهم يأنفون ان يتدنوا اليها كما يشهد تاريخ نضالهم العنيف الشريف ..

ثم اذا تجاوزنا عن صفة الخسة والدناءة والاجرام ، التي تتصف بها

هذه الاعمال ، وتجردها عن القيمة العسكرية او مظهر القوة الحقيقي الذي يتبجح به زعماء الصهيونيـــة ، نعود لندقق في تأثيرها النفساني الصحيح ، الذي يعطيه الصهيونيون اهمية قصوى .

نعم لقد كان لهذه الاعمال الارهابية صدى بعيد للغاية . وكان لها تأثير نفساني خطير ايضاً . لكن عنـدما كانت تقترف ازاء سلطة حكومية معينة ، لا ضد شعب محارب برمته . وعندما كانت توجه نحو افراد او جماعات ، هم غرباء عن البـلاد التي يفقدون حياتهم فيها ، عنصراً ، وموطناً ، ومصلحة . لانحو اقوام يعتبرون هذه البلاد مهدهم ولحدهم ، منذ الازل والى الابد .

فمن الطبيعي ان ترتاع السلطات البريطانية في فلسطين من اعمال الارهاب الصهيوني هذا ، بوصفها سلطة منتدبة يسيئها ان تتهم بالعجز عن ضبط الامن في البلاد ، كما حصل فعلاً . كما ان رعاياها من جنود ، وموظفين اداريين ، او سكان مدنيين ، لايستطيعون اخفاء قلقهم وجزعهم من ذلك الجو الذي يعيشون فيه وحياتهم مهددة بالخطر في كل لحظـــة . ذلك لانهم يشعرون انهم غرباء في تلك الديار ، ولا يربطهم بها اي رابط ما خلا المصلحة الموقتة او العمل الرسمي . لذا يصعب عليهم ان يدفعوا ثمن تلك المصلحة الزهيدة راحتهم الكاملة ، او حياتهم ايضاً .

أما بالنسبة للعرب ، فالحالة على عكس ذلك تماماً . اذ انهم خرجوا الى ميدان الصراع هذا بأموالهم وارواحهم ، وممتلكاتهم وفلذ اكبادهم . لانهم يعلمون انهم يخوضون معركة الفناء والبقاء على كل حال . ولانهم

يرون بيوتهم وقراهم فريسة لاطماع الصهيونيين الدخلاء ، الذين يحاولون ابتلاعها ان سلماً او حرباً . فالموت في نظرهم اصبح هو سبيل الحياة ، والهدم واسطة البناء . فلن يريعهم اذن التدمــير والتخريب ، ولن يخيفهم الاغتيال او الانفجار . ثم ان ميدان المعركة الدائرة بينهم وبين الصهيونيين ليس مقتصراً على المباني الرسمية ، او الشوارع الآهلة ، او منشاآت الجند النظاميــة . بل هو ميدان متوامي الاطراف ، يشمل القرى والدساكر ، والريف والحواضر ، والمحارب والآمن ، والقفار والعمار . فما هي فائدة الاجرام الفردي اذن ، وما هي قيمة الحوادث الارهابية البعيدة الصدى ، لكن محدودة نطاق التأثير ...!!

لذا نرى ان الشهرة الوهميــة التي انتحلها الصهيونيون لمنظماتهم العسكرية عن طريق الدعاية والتهويل ، هي جوفاء لا قيمة لها . وان ما ادعوه من « الانتصارات » ازاء قوى الامن البريطانيــة ، يتهافت سريعاً اذا ما قابلوا قوى النضال العربية . وان الموارد الاستثنائيــة التي استطاعوا ان يكثفوا قواهم العسكرية عن طريـقها في زمن الحرب ، اصبحت بحكم المفقودة الآن ، فلا امل لهم الا بيسير من المـدد .

وبناء على كل هذه البينات نستطيع ان نجزم بأن اليهود سيفقدون زمام المبادهة خلال الجولات الاولى من الصراع الحاسم بينهم وبــين العرب ـ بل هم فقدوه فعلاً الآن ـ ولن يتمكنوا من استرداده مع استمرار النضال ، لان عنصر الزمن يعمل لمصلحة العرب في هذا المعترك حتماً . كما ستثبت الايام .

عناصر التفوق العربي

أول ما يسجل على العرب في معرض الكلام عن معركة فلسطين الحالية ، هو عدم استعدادهم المسبق لها . حتى سمحوا للحوادث الجسام بأن تفاجئهم بدلا من ان يفاجئوها هم . ثم فقدان طابع التنظيم في حركاتهم الاولى ، مما جعلها ضعيفة النتائج ، قليلة التوفيق . وهذا ما أثار استهتار الخصم بهم ، واشفاق الصديق عليهم ، كما أثار - في حينه - كثيراً من التقولات والمناقشات الداخلية بينهم . لكن هذا المأخذ - رغم وجاهته مبدئياً - لم يعد يصح ان يكون موضوع بحث الآن ، كما لا يجب ان يتخذ دليل ضعف في الامكانيات ، او فتور في الاندفاع . اذ سرعان ما انقلب ذلك الفتور الوقتي الى حماسة متقدة ، والارتجال السابق الى تنظيم محكم ، كما نشاهد عياناً بالوقت الحاضر .

ومن الخطأ ان يعتقد القريب او البعيد ان الصهيونيين يتمتعون بأفضلية على العرب في هذه المعركة ، لانهم سبقوهم في الاستعداد ، وواجهوها في حالة تعبئة عامة ونظام محكم . في حين أن العرب لم يبدأوا استعدادهم الفعلي الا بعد ابتداء جولاتها الاولى ، ولن تتم تعبئتهم الكاملة الا وهم في وسطها . فماذا اضر بريطانيا مثلاً ، انها دخلت الحرب العالمية الاخيرة على غير استعداد سابق ، في حين ان المانيا النازية كانت قد بالغت في الاستعداد لها منذ بضع سنوات خلت ...

وهذه هي حقيقة الموازنة بين العرب واليهود في هذا المعترك .

كان اليهود يتمتعون بقوة مخزونة مكثفة من قبل . استطاعوا ان يستخدموها سريعاً في بعض اعمال من الفتك والتدمير والتخريب . وقد تظل هذه القوة المخزونة قادرة على الاندفاع الذاتي مدة محدودة من الزمن . وقد تأتي بين الفينة والفينة ببعض اعمال موضعية بعيدة الصدى كالعادة . لكنها غير قابلة للزيادة والنمو باضطراد . اما العرب الذين ظهروا في اول الامر عاجزين عن مقابلة اعمال الصهيونيين الارهابية بمثلها ، ان كان بسبب عدم وجود منظمات مهيأة لمثل هذا الامر ، او بسبب عدم توفر السلاح اللازم ، فسرعان ما تضاعفت قوتهم من جميع النواحي . لمجرد ان هب نفير الجهاد المقدس يدعوهم الى النضال في سبيل كيانهم وكرامتهم . وخرجت جموع مجاهديهم الى معركة الموت والحياة ، منتظمة الصفوف ، وافرة السلاح ، تامة التدريب . كما ان فيض القوى العربية لايزال يتدفق بغزارة واستمرار من جميع الجهات . مما يؤكد لنا ان كل يوم يمر سيزيد العرب قوة مادية ومعنوية ، وعددية وتنظيمية ، وهذا ما يجب علينا ان لا نتوسع في بحثه وسرد دقائقه ، لأنه من الامور التي لا يجوز ان تذاع وتعلن بل يجب ان تبقى مكتومة حتى تظهر نتائجها العملية فقط . .

نأتي بعد هذا لنرى الخطوط العامة لامكانيات العرب العسكرية في هذا الصراع ، وطاقتهم المادية اصلاً ، وموارد القوى لديهم ، وقيمة كل هذه الامور بالنسبة الى الجبهة المقابلة .

واول ما يجب اعتباره في هـــذا المقام ، هو مزايا العنصر العربي العسكرية . وهذا ما يقدم لنا اول دليل على تفوق العرب في هـــذا الصراع الراهن . فالعربي الفرد ، جندي ممتاز ، متفوق بشجاعته ، وممتاز

بروح الجلد في النضال ، والصبر على المكاره ، واحتمال الآلام وشظف العيش . والعرب كجماعـــة ، شعب محارب مناضل في جميع ادوار تاريخهم . لم يعرف عنهم قط الاستخذاء او الاستسلام ، ولا القبول بالمذلة والسكون على القيد . بعكس العنصر اليهودي الذي هو مضرب المثل بالخنوع والذل ، والذي لا يحوي تاريخه سوى مآسي الاضطهاد والتشريد التي لم تقابل بأي رد فعل عنفي او ثوري بصورة مباشرة .

ولقـد تمرس العرب بالحروب الأممية في عدة ادوار من التاريخ . كانوا فيها بين مدافعين او مهاجمين ، وفاتحين او ثائرين . ودخلوا مضمار الصراع العالمي العسكري في جولات عدة ايضاً ، كما اثبتنا ذلك في الفصل الثاني من كتابنا هذا . وتلك هي الامبراطورية العربية العظيمة ، التي امتدت من اطراف الصين الى شواطيء الاطلسي . لا تعادل « مملكة سليمان » – التي يعتبرهـا اليهود ذروة امجادهم القومية والعسكرية – اصغر ولاية من ولاياتها . وذلك سجل نضالهم التحريري ضد اقوى امم العالم في القديم والحديث ، من عهد الرومان والفرس ، ثم البيزنطيين ، ثم الصليبيين الاول ، ثم الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة مثل انكلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، هو على نقيض تاريخ العبودية اليهودية ، الذين لم يستطيعوا انقاذ نفسهم بقوتهم الخاصة ، لا من عهـد بختنصر ، ولا في ايام الرومان ، ولا في اية دولة من الدول الاوروبية التي قامت على المبادىء العنصرية ، واتخذت اضطهاد اليهود برنامجاً لها .

كل هذه الادلة التاريخية تضمن للشعب العربي التفوق المحتم على الشعب اليهودي الكسيح ، في ميدان النضال القومي ، نظراً لما يتحلى به من

السجايا العسكرية الطبيعية . كما تؤكد قدرة العرب على الثبات اكثر من سواهم في الصراع الاممي الطويل الامـــد . لانهم تعودوا مقابلة تيارات الغزو والفتح مراراً وتكراراً ، فأصبحت فكرة الدفاع عن الوطن سجية متأصلة في نفوسهم ، لاترهبهم كثرة العدد والعدد ، ولا يفل من عزيمتهم تعدد الاخصام ، او طول امد المعركة واتساع نطاقها . في حين ان اليهود لم يتعودوا التحول الى شعب محارب بمجموعهم . وليس فيهم من المقاتلة سوى طبقــة محترفة مأجورة . اذا غلبت على امرها استسلم من ورائها من جموع المــدنيين التجار والصناع وسواهم من من الطبقات الحريصة على الحياة .

كما ان فطرة الشعب اليهودي على العمل الدائب في سبيل كسب المال ، تجعله غير قادر على ايلاف حياة الحرب والنضال مـدة طويلة من الزمن ، حتى ولو كان هناك من يحارب من أجله . اذ انهم يقدمون العامل الاقتصادي على كل شيء ، ويزينون الامور بميزان المادة ايضاً . فهم حينما كانوا ينشدون السلام والاستقرار في سبيل المتاجرة ، والانتاج وانماء الربح المادي . ونفسية شعب كهذا لاتستطيع الثبات في صراع طويل الامد . فاذا حوصروا طويلاً في فلسطين في وسط تيار حربي ، فان سوادهم وجمهرة المتمولين لن يحتمل البقاء كثيراً في مثل ذلك الجو المشلول ماديا ، حتى ولو استطاع جماعتهم المحاربون ان يحتفظوا ببعض التوزان العسكري استناداً الى المساعدات الخارجية المحتملة . وهـــذا يؤكد ان الشعب اليهودي في فلسطين ، يمكن ان يخسر المعركة قبل ان تصاب منظماتهم العسكرية بالهزيمة الحاسمة . في حين ان الشعب العربي قد وضع نصب عينيه هدف التحرر القومي اولا . وهو انموذج

الثبات في النضال الطويل في سائر ادوار التاريخ ، سيان في حالات الانتصار والانكسار . وهذا اول دلائل الرجحان بين الفريقين ...

ولنأت الآن الى دراسة النواحي المادية الصرف في قوى العرب النضالية ، لنرى اذا كان لديها من الكمية العددية والامكانيات الستراتيجية ما يضمن لها تحقيق هذ التفوق المفروض فيها ان تحرزه .

ان الذي نراه من البينات المحسوسة والأرقام ، لدى اول نظرة نلقيها على العالم العربي تقدم لنا ادلة جديدة تثبت لنا رجحان كفة العرب مادياً ، دون اي شك او ريب . فهناك بحر زاخر من الدم العربي يحيط بفلسطين من جميع اطرافها ، ويجيش بروح الثورة والاندفاع منذ عهد بعيد لاقتحام معركة التحرر المنشودة هذه . يعد سكان دائرته الاولى المتصلة مباشرة بفلسطين - اي التي تقتصر على مصر والجزيرة العربية - قرابــة اربعين مليوناً من الانفس . بصرف النظر عمن وراءهم من الاقطار الاخرى في العالمين العربي والاسلامي . فلن يتسنى للصهيونية التي لا يتجاوز ابناؤها ثلث هذا العدد في العالم بأسره ، مجابهــة ذلك البحر الزاخر بصورة من الصور ، حتى ولو ساعدها من يقف وراءها حالياً من الدول العظمى لنقل المهاجرين - اي المحاربين - من جميع انحاء الارض الى ميدان المعركة في فلسطين .

وعدا عن هذا التفوق العددي الواضح ، هناك افضلية مادية اخرى يتمتع بها العرب في هــذا الصراع . وهي سهولة الاتصال بين جميع مصادر قواهم المتفرقة، وبين ميدان المعركة. في حين أن الصهيونيين موزعون في جميع اطراف المعمور ، لا يستطيع الكثير منهم الوصول الى هذا الميدان ، لا بشكل افراد ولا بشكل جماعات ، حتى ولو افترضنا عدم وجود رقابة عليهم

في دخول البلاد . ومع تسهيل بعض الدول الكبرى - مثل روسيا واميركا - سبيل النقل ووسائله لهم ، كما يجري بالفعل . وهذا مايعطي العرب افضلية السرعة في التعبئة ، وسد كل فراغ في صفوف محاربيهم ، او مضاعفة عدد هؤلاء المحاربين بسهولة عند الاقتضاء .

واذا تعمقنا قليلاً في تقدير القوى الكامنة في « بحر الدماء العربي » هذا ، نجد انه يستطيع غمر فلسطين بكاملها ، مادياً وعملياً ، بصورة تجعل اية قوة محلية او دولية مهما عظم شأنها ، عاجزة عن الاستقرار والتمركز امام هذا التيار الجارف . ولقد اكد لنا الوضع الراهن شدة حساسية الرأي العام العربي ، وعمق الوعي القومي في سائر الاقطار الناطقة بالضاد . بحيث كانت موجات المتطوعين للجهاد في سبيل فلسطين في كل مكان ، اكثر بكثير من نطاق المعركة المنتظرة ضد الصيونيين . لذا نجد وراء الطلائع الحالية التي ستقاتل الصهيونيين في الجولات الاولى من المعركة التحريرية الكبرى ، فيض من الامداد ، وموارد لا تنتهي من القوى الاحتياطية . تضمن للعرب كسب الجولات الاخيرة حتى ولو تدخلت بعض « القوى الخارجية » بصورة مقنعة او سافرة فيها ..

ولسنا نريد ان نتوسع الى ابعد من هذه الحدود في الكلام عن القوى العربية وامكانياتها لاننا سنترك المجال لهذه القوى لتثبت للعالم واقعياً قدرتها على تحرير هذا الجزء الغالي من الوطن العربي ، في المعارك الحاسمة التي تنتظرها بين روابي « حطين » واسوار « البراق » الشريفة .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ...

معركة فلسطين
ومصائر العرب

لماذا يحارب العرب ؟ - مغزى قرار التقسيم - نحن والعالم الجديد - معركة التحرر الحاسمة .

لماذا يحارب العرب ؟!

أو بالأحرى لماذا تثور الاقطار العربية كلها ، فتعلن النفير ، وتندفع الى خوض معركة كبرى ، متشعبة الاتجاهات كثيرة الاحتمالات والمفاجاآت ؟؟

قد يلقي الكثيرون مثل هذه الاسئلة جادين او عابثين . ويستغربون تحدي الشعوب العربية على اختلاف اقطارها ، لمنظمة الامم المتحدة ، وللدول الكبرى الرئيسية فيها بنوع خاص ، بسبب اتخاذ قرار « تقسيم فلسطين » . . ! ! زاعمين ان هذا القرار لم يسلب العرب اوطانهم في مصر والشام والعراق مثلا ، ولم ينتزع فلسطين « برمتها » من

بـين ايديهم ... فهو اذن لا يوجب عليهم الدخول بمثل هـذه المجازفة الكبرى ...

ومثل هذه الآراء والتصورات ، ان دلت على شيء فهي تدل على جهل تام لجوهر القضية العربية ، واهـداف حركة التحرر العربي ، وحقيقة البعث الجديد ، الذي اصبح يعم جميع الاقطار الناطقة بالضاد . ونحن وان كنا لا نعطي وزناً لمثل هذه الترهات ، الا اننا نرى لزاماً علينا ان نوضح لكل سائل او متسائل ، وجاهل او متجاهل :

لماذا يحارب العرب فى فلسطين ...

ليست هـذه الثورة الصاخبة في كل قطر عربي من اجل انقاذ فلسطين ، عبارة عن اندفاع عاطفي ، او حماسة موقتة ، تسير فيها الجماهير دون ان تعرف الدوافع والاهداف ... بل هي وليدة الوعي القومي الصحيح ، الذي امتدت جذوره في صميم الكيان العربي العام ، ورسخت دعائمه في كل جزء على حدة ، وتوثقت بواسطته عرى التماسك والارتباط بين هذه الاجزاء جميعها ، حتى تكون منها تيار موحد . لذا فهي تعرف كيف تظهر ، وتدرك الى اين تسير ، وتؤمن بقدسية الاهداف التي تتجه نحوها .

ولا يندفع العرب في سبيل انقاذ فلسطين ، تخصيصاً ، لما لها من المكانة الدينية فحسب ، وما فيها من الآثار التاريخية الثمينة فقط . بل ان اندفاعهم هـذا هو لكونها جزء من الوطن العربي الاكبر الذي لايقبل التفرقة بين اجزائه . وعضو حي من جسم الامة العربية كسائر الاعضاء ، بصرف النظر عن التفاوت في الاهمية والتقدير فيما بينها . ولو

كان اي قطر عربي آخر مهدداً بمثل هـذا الخطر الذي يهدد فلسطين حالياً ، لكانت سائر الاقطار الاخرى تهب للنجـدة والانقاذ ، بالصورة التي نراها تندفع فيها اليوم .

ولا تتألب جموع المجاهدين العرب من كل حـــدب وصوب لمحاربة الصهيونيين الطغاة ،لكرههم لليهود عنصراً ، اودينا ، على غرار ما جرى في بعض البلدان الاوروبية . فالعرب فوق كل تعصب ديني ، او كراهية عنصرية ، كما يشهد لهم تاريخهم العريق . لكنهم ينظرون الى الصهيونيين هؤلاء بصفتهم غزاة معتدين ، واجانب غرباء ، نزلوا في بقعة من بقاع الوطن العربي بدون ارادة العرب ، وراحوا ينازعونهم السيادة والسيطرة ويحاولون التمركز والتحكم بالقوة والاكراه . فهبوا لمقاومتهم واقصائهم شأن كل شعب يدافع عن وطنه ، ويحافظ على كيانه . بل شأن العرب انفسهم مع سائر الشعوب الغازيـــة التي حلت في سائر بلدانهم الاخرى .

ثم هناك حقيقة اخرى تكشف لنا عن لون جديد من الوان الوعي القومي العربي . هي ان العرب في نضالهم الراهن ، قـد سموا فوق كل نزعة اقليميـة ، او سياسة موضعية . واعتبروا قضيتهم القومية التحريرية وحدة لا تتجزأ ، ومصيرهم جميعاً مرتبط بمصير كل قطر من اقطارهم بمفرده . فلا يكفيهم تحرر بعض اقطارهم - كلياً او جزئياً - من قيود الاستعمار الخبيث ، في حين ان واحداً منها يتحول الى بؤرة الذلك الاستعمار الممقوت ، ويبقى قاعدة دائمة له .

اذن فالعربي من مصر والشام والعراق ، وسائر اطراف الجزيرة ، عندما يحارب من اجل تحرير فلسطين ، ويستشهد فوق ثراها المقدس ،

انما هو يناضل أو يموت في سبيل كيانـــه الخاص ، وموطنه العربي الاكبر دون تحديد او تقييد .

وهذا ما يؤكد لنا ان العرب عندما يدفعون بكل قواهم الى غمار معركة فلسطين الراهنة ، لا يعتبرون انفسهم يخوضون نزاعـاً محلياً مع الصهاينة المتمركزين في هذه البقعة العربية ، او الذين يحاولون التمركز فيها . بل انمـــا هم يعتبرونها رمز الصراع بين الغرب والشرق ، كما اسلفنا آ نفاً . ويعتبرون الدولة اليهودية المفروض انشاؤها ، القاعـدة الدائمة للاستعمار الاجنبي في بـلاد العرب ، بدليل تأييد جميع الدول الاستعمارية لها . لذا القوا بكامل ثقلهم في هذه المعركة الحاسمة ، لانهم مصممون على خوضها حتى النهاية ، وعازمون على مجابهة اية قوة اجنبية تواجههم فيها .

وقد تتحول هـذه المعركة وتتطور ، وتتعدى حـــدود فلسطين الحالية ... او تنتقل الى ميادين اخرى غيرها . وليس كل هذا بمقعد العرب عن هدفهم الاسمى ، ولا يضائر حركة التحرر العربية شيئاً .

فالعرب لا يزالون في حالة حرب مع الاستعمار في كثير من اقطارهم . وهذه المظاهرات الصاخبة في معظم العواصم العربية ، لاتخبو حتى تتقد من جديد . والرأي العـام العربي اصبح شديد الحساسية لدرجة قصوى ، يثور لدى اية بادرة من بوادر تهديد حريته او انتقاص سيادته . فموقفه العنيف الثائر هذا في فلسطين ، لا يختلف عن الموقف العربي العام بصورة من الصور ، بل هو متمم لذلك الموقف العام ، ومستمد منه ايضاً .

فاما حرية لا شائبة فيها ولا قيد .

واما صراع دائم بين حق الشعوب في الحرية ، وبـــين مطامع الاستعمار الحرقاء .

وليكتب الله النصر فيه لمن يشاء ...

مغزى قرار التقسيم

بعد ان عرفنا العوامل القومية التي تدفع بالعرب الى اذكاء معركة فلسطين وخوض غمارها ، نعود لنقف قليلاً عند « مشروع التقسيم » المشؤوم ، لنستجلي حقيقته ومغزاه ، ونرى اذا ما كان يستحق ان يتخذ سبباً مباشراً لانفجار مثل هذا البركان الخطير .

ان النتيجة الاولى التي تترتب على « قرار التقسيم » هذا هي انشاء « دولة يهودية » في فلسطين . . .. ومثل هذا الامر وحده كاف لحمل العرب على ايقاد جذوة الحرب ، وبذل النفس والنفيس في سبيل احباط هذه المؤامرة الجهنمية بأية وسيلة كانت ، وبأي ثمن يترتب عليهم دفعه . لأنهم قد انكروا على الصهيونيين حق التمركز في فلسطين اصلاً ، ولو بصفة لاجئين . وقامو بسلسلة من الثورات المحلية لمنعهم من التمادي في الهجرة اليها بصور مشروعة او غير مشروعة . لانهم يعتبرونهم غرباء دخلاء ، يأتون لمنافسة العرب في عقر دارهم ، وقطع موارد الرزق عنهم في بلادهم .

اما ان تنقلب هذه الهجرة الى استيطان دائم ، ويتحول هـــذا الملجأ - المفتوح او المقيد - الى وطن شرعي ثابت ، وحق تملك القرى والاراضي الى حق ممارسة السيادة المطلقة محلياً ودولياً ، فهذا مالا يمكن القبول به قطعاً ، ولا السكوت عن اية محاولة ترمي اليه مهما كان شكلها ، او اياً كان مصدرها . . .

اذ كيف يمكن لشعب حي يتمتع بمزايا الحياة الحقيقية ، ان يرضى بسلخ جزء من وطنه ، ليمنح ذلك الجزء الى شعب آخر يبني فيه دولة ، مهما كان شأنها كبيراً او صغيراً . او كيف يمكن لأمة من امم الارض ، ان تسكت عن انتزاع سيادتها عن بقعة من اراضيها ، وتحول هذه السيادة قسراً وكرهاً الى امة اخرى ، لا تربطها بها اية صلة !؟

يقولون تضليلاً : ان العرب لا يخسرون في عملية التقسيم هذه ، الا اقل من واحد بالمئة من مجموع مساحة وطنهم الاكبر ، المترامي الاطراف . في حين ان اليهود هم شعب بلا وطن له في هذه الارض . أفكثير على هذا الشعب المشرد ان يمنح هذا الجزء الصغير ليصبح وطناً له ؟!!..

والجواب على ذلك ، هو انه لا يعنينا من امر اليهود ووطنهم شيء . مع العلم ان هذه الخرافة القائلة انهم شعب بلا وطن يمكن دحضها بالبحث العلمي ، وتؤول الى اتهامهم بالخيانة العظمى ازاء كل دولة من دول الارض يعتبر بعضهم مواطنين فيها مما لا مجال لنا لسرده الآن (١) .

لكن الذي لا بد لنا من تأكيده هو ان قيمة الوطن لا تقدر بالمقاييس المادية او الارقام الحسابية . وحقيقة الوطن انه ـ من الناحية الروحية والمادية ايضاً ـ وحدة كالجوهر الفرد ، لا يصح تجزئتها . فسواد العين لا يشكل ـ مادياً ـ الا نسبة ضئيلة من جسم الانسان . لكنه لا يمكن الاستغناء عنه ، لان ذلك يؤدي الى تشويه ذلك الجسم

---

(١) راجع كتاب : فلسطين العربية ـ للمؤلف ـ ص ٤١

بكامله . وموقع فلسطين من الوطن العربي الاكبر ، كموقع سواد العين من جسم الانسان فلا مجال للتسليم بشطرها البتة ، اذا كنا نريد المحافظة على سلامة هذا الجسم .

ثم اننا نذهب مذهباً آخر في القول ايضاً . وهو انه لو طلب اليهود – او غيرهم من شعوب الارض – جزءاً من صحراء الربع الخالي ، او ما يشابهها من قفار الجزيرة العربية ، بغية اقامة دولة اجنبية فيها ، وممارسة سيادة قومية لذلك الشعب الاجنبي عليها ، لرفض العرب في سائر اوطانهم التسليم بهذا الطلب ، لأن السيادة الوطنية لا تتجزأ قط . . .

ليس العرب مسؤولين عن آلام اليهود في العالم ، ليطالبوا وحدهم دون سواهم بتقديم « وطن » لهم ، يمحو عنهم هذه الآلام . ولا هم السبب في تشريدهم وتمزيق شملهم في مختلف بقاع الارض ، ليتحملوا هم مسؤولية ايواء لاجئيهم ، ومشرديهم ، وشذاذ الآفاق منهم ، من حيثما أتوا .

فالمسؤول الاول والاخير عن آلام اليهود ، هو نفسيتهم اللئيمة ، الدنيئة ، الجشعة ، التي جعلتهم مجلبة للسخط عليهم اطلاقاً ، والسبب الاكبر في تفرقهم وشتاتهم هو انانيتهم المتناهية ، وشرههم على الكسب المادي والامتصاص ، مما جعلهم يتشبثون باسباب الرزق في شتى بقاع الارض ، كما جعلهم لاينسجمون مع غيرهم من الشعوب حيثما حلوا ، وايان وجدوا . . . !!

• ومع ذلك فقد كانوا يعيشون مع العرب عيشة أمن ودعة في شتى الدهور والعصور ، ولم يتعرضوا لديهم الى ما تعرضوا له من الاضطهاد

مع سواهم من الشعوب .

ومهما كانت الاعتبارات المعنوية ، والنفسانية ، والتاريخية في هذا الموضوع ، فهناك اعتبار سياسي واحد ، لايقبل الجدل ولا المغالطة . هو ان فلسطين بمجموعها بلاد عربية محضة ، عرقاً ، وموقعاً ، وتاريخاً ، لايمكن انتزاع سيادة العرب على أي جزء من اجزائها .

وان قرار التقسيم هذا ، الذي له تاريخ قديم كله ظلمة ومظالم ، يرمي الى انتزاع جزء حيوي من صميم الوطن العربي الاكبر ، ليقدمه لقمة سائغة الى اليهود ، لكي ينشئوا لهم فيه وطناً ويقيموا دولة . لم يسلم العرب به قط في اي وقت طرح على بساط البحث ، او اشير اليه تلميحاً او تصريحاً . فهم لن يستسلموا الآن حتى لأرادة هيئة الامم المتحدة ، التي اخذت بزخرف القول ، ووسائل التهويش السياسي فحاولت بعثه من جديد ، وتعرضت لاثارة هذا البركان الساجي ، وهي نفسها بعد في دور تجربة اثبات الوجود ، لم تنجح في تحقيق اي عمل سلمي ايجابي للعالم حسبما يتوقع منها .

فاذا كانت الدوافع الانسانية تقضي حقاً بانشاء وطن حر لليهود في العالم ، يمارسون فيه سيادة قومية ، فليفتش رواد المبادىء الانسانية — المصطنعة — عن ضالتهم هذه خارج بلاد العرب ...

لأن العرب يرون في هذا الوطن الصهيوني المفروض ، او الدولة اليهودية المنشودة ، مطامع الغرب الاستعمارية بجميع مآسيها وجرائمها . ومحاولة غزو جديد يشنه الغرب على الشرق . ونقطة تمركز دائم للقوى الامبريالية والرأسمالية الغربية في صميم بلاد العرب ، تهدد كيانهم في السلم والحرب ، وتقيد حريتهم ، بل تجعلها حلماً اجوف لا ينطوي على

شيء من الحقيقة . وتتمتع بالقدرة على التمدد والتوسع في اي حين ، وحسبا تشاء اهواؤها الخبيثة التي بلوناها في شتى المناسبات ...

واذا أصرت الدول الاستعمارية على تحدي العرب بالقوة والقسر ، فان هؤلاء يرحبون بهذه الجولة الجديدة من جولات الصراع الدائم بين الشرق والغرب ، يدعون اليها في فجر عهد السلام المزعوم . . . فاما ان يحرزوا حريتهم كاملة مطلقة ، غير منقوصة ولا مقيدة ، واما ان يسفر الاستعمار لهم عن وجهـــه الصحيح ، فيسطرون آنذاك لانفسهم صفحات جديدة من النضال في سبيل الحرية ، والسيادة القومية ، مهما كانت نتائجه المادية .

فصدر التاريخ لم يزل مفتوحاً لكلتا الحالتين ...

نحن والعالم الجديد

اذا انطلقنا قليلاً من جو القضية الفلسطينية المحلي ، مـع مارأيناه من اتساع نطاق هذه القضية ، ومـــا لها من المساس بسائر الاقطار العربية على الاطلاق ، نجـد ان العرب يقفون اليوم وهم في وسط معركتهم هذه ، امام اسطورة « العالم الجديد » الذي جمله افانين الدعاية اثناء الحرب العالمية الاخيرة ، ليختبروا حقائق تلك الامـاني المعسولة التي تعللوا بهـا طويلاً ، ويروا ماوراء ذلك الحلم البراق الذي تلألأت خيوطه من خلال سحب النار والدخان ، متخذين قضية فلسطين محكاً لتلك الاحلام والوعود .

لقد كانت وعود الحلفاء خلال الحرب العالميـــة الثانية ، بصورة

مواثيق عامة قطعوها لسائر شعوب الارض التي تخوض غمار معركة الحرية والعدالة الى جانبهم . وكان اهم هذه المواثيق التي اعتبرت دستوراً للعالم المثالي العتيد : « ميثاق الاطلسي » و « ميثاق الحريات الاربع » . وزيادة على هذه العهود العامة ، فقد نال الغرب وعوداً خاصة - بصورة بيانات سياسية او تصريحات رسمية - كان مآلها اعتبار الشعوب العربية كلها ذات حق بالحرية العامة والسيادة القومية . واعتبار « جامعة الدول العربية » منظمة اقليمية ديمقراطية ، لها الحق بمعالجة جميع قضايا العرب السياسية والقومية .

واذا اتينا للتمسك بهذه المواثيق العامة والوعود الخاصة ، نجد انه كان من الواجب على منظمة الامم المتحدة ان لا تعمد الى التحكم بتقرير مصير فلسطين ، بل تترك ذلك الى سكانها الحاليين - واكثريتهم من العرب - عملاً بموجب حق كل شعب من الشعوب الصغيرة بتقرير مصيره بنفسه . كما ان اجماع الشعوب العربية طراً على صيانة هذا الجزء من الوطن العربي الاكبر ، واصرار جامعة الدول العربية على تبني حقوق العرب بكاملها في فلسطين ، كان يوجب على الدول الحليفة الكبرى احترام ارادة هذه الشعوب الحليفة ، وهذه المنظمة الاقليمية التي اعتبرت انموذجاً صالحاً لتوطيد علاقات السلام بين الشعوب المتجاورة في العالم الجديد .

لكن هذه الاعتبارات كلها ذهبت اذراج الرياح . فقد امحت اسطورة الحرية والعدالة من برامج الدول الظافرة الكبرى . وراحوا يبنون عالماً جديداً على اساس مصالحهم الخاصة ، والتوازن - او التنازع - بينها ، لا على اساس المبادىء المثالية التي بشروا بها . لذلك كانت

فلسطين المنكودة اول ضحية عربية تساق الى مذبح المطامع الاستعمارية، المتنازعة طوراً ، والمتنافسة تارة اخرى ...

وليس هذا بمستغرب لدى العرب . لانهم بلوا مرارة خيبة الآمال، ونقض الوعود بين السلم والحرب . وذلك منذ الحرب العالمية الاولى كما هو معلوم . لكن تكرار هذا الدرس القاسي ينزع البقية الباقية من الثقة بالمواعيد البراقة من نفوسهم . كما يزيدهم يقيناً بأن الدول الاستعمارية الكبرى لاتنظر الى مصائر الشعوب الاخرى الا بمنظار مصالحها الخاصة .

فاذا كانت الحرب العالمية قد انتهت الى ماانتهت اليه ، واريد بهم ان يكونوا مرة اخرى ضحية التوازن الدولي الجديد ، فاننا نرى بوضوح ان هذا التوازن لن يكتب له الاستقرار طويلاً مهما بالغ دهاة السياسة في تغطيته بالمناورات والمعميات . وان الحرب التي انتهت الى غلبة احد الفريقين المتنازعين فيها ، لم تسفر عن سلم حقيقي بعد . فكأن تلك النهاية ليست سوى هدنة موقتة يعاد فيها تنظيم المعسكرات الدولية المتنازعة من جديد .

ونحن لا نعنى في هذا المقام ببحث امر هذه المعسكرات الدولية، او كيفية تنظيمها ، او تبيان اهداف كل واحد منها . هذا مع العلم بأن جميع هذه المعلومات لم تعد سراً يخفى ، ولا احجية تحتاج الى حل . لكن المهم في القضية ان التوازن الدولي الجديد قد بني على اسس جديدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، فابت خطط الصراع العالمي المقبل رأساً على عقب ، ونقلت ميادينه الرئيسية العتيدة من غربي اوروبا – التي كانت الجبهة الرئيسية في الحربين العالميتين السالفتين – الى شرقي اوروبا والشرق الاوسط .

فبديهي القول اذن ان هـذا الانقلاب التام في التوازن العالمي الجديد ، قد جعل العرب في وسط جبهة الصراع العالمي المنتظر ـ سيان كان قريباً او بعيداً ـ وقد يعطيهم الفرصة او الامكان ، ليكونوا القوة المرجحة في وقت ما ، نظراً لما يقع في بلادهم من المفاتيح الستراتيجية الهامة او طرق المواصلات الحيوية ، واستناداً الى ما في اراضيهم من الخزانات الغنية بالبترول ـ عصب الصناعة في السلم ، والمادة الاساسية في الحرب . هذا بالاضافة الى ما يستطيعون تعبئته سريعاً من الايدي العاملة وقوى المحاربين الفعليين ...

فاذا كان لا يوجد لديهم مطامع خارجية او مطاليب اقليمية تدفع بهم لخوض غمرات الصراع الاممي الطاحن ، لكنهم سيقررون موقفهم في العالم الجديد حتماً على ضوء ما تؤول اليه مطاليبهم القومية العامة ، والقضية الفلسطينية ـ التي هي رمز هـذه المطاليب ـ بصورة خاصة . فاذا ظفروا بما كانوا يوعدون به من العدل والانصاف ، اصبحوا عامل خير وسلام في هذا العالم ، وحولوا جميع امكانياتهم الى قوى ايجابية تؤيد حماة مبادىء الحرية والعدالة مهما كان شأن الغد .

اما اذا فرضت عليهم القسمة الضيزى ، وزجوا تحت وطأة الغبن في التسوية مرة اخرى ، فانهم سيعودون الى النضال حتى في عهد السلم ، وسيحاربون كل معتد على حقهم في السيادة في اوطانهم ، وكل مغتصب لحريتهم كائناً من كان . كما انهم سيضعون قواهم بأسرها في الموضع الذي ينالون به حقهم ، اذا عاد الامر الى تطاحن القوى مرة اخرى ..

وقد جرت التجارب والمناورات السياسية مؤخراً في بعض البلدان العربية ـ غير فلسطين ـ لاجتذاب العرب الى هذا المعسكر او ذاك ، باسم « الصداقة » التقليدية الجوفاء ، القائمة على الالفاظ البراقة فقط ،

والمجاملات الدبلوماسية لوحدها . فكانت التجربة قاسية ، والدرس بليغاً للغاية . وأثبتت الوقائع ان حركة التحرر العربي الجارفة لم تعد تخدع بالقشور عن اللباب ، ولا تهمل الاصل وترضى عن الفرع . وان الوعي القومي العميق لم يعد يسمح لاحد في العالم بأن يستخدم العرب كعبيد بأتواب الاصدقاء ، ويوجه قوتهم حسب مصالحه واهوائه ، دون مراعات مصالحهم ، وارادتهم ، واتجاهاتهم القومية الحقيقية .

والخلاصة ، فان العرب باتوا يدركون حقيقة مكانهم من العالم الجديد ويعلمون مدى تأثير قواهم الفعلية والكامنة في تقرير ميزان القوى المتقابلة فيه ، او تغييره ايضاً . وانهم لايقلون عن سواهم من شعوب الارض الحية رغبة في اداء رسالتهم المثلى في هذا العالم العتيد ، وهم في طليعة رسل المثل العليا للعالم في ادوار التاريخ القديم . ولا يتهيبون خوض غمرات الصراع الاممي العنيف في سبيل احقاق الحق ودحض الباطل . لكنهم يريدون ان يطمئنوا الى صيانة حقوقهم القومية اولاً ، قبل ان يتفانوا في الذود عن الحقوق الانسانية العامة . ويسعون الى الوقوف حيث يريدون في الميزان الدولي العام ، لاحيث يريدهم الغير ان يقفوا .

وهذه قضية فلسطين ، التي تتخذها بعض الدول الكبرى « مفتاحاً » لغيرها من القضايا العربية ، او موضوع مساومة بين مطامع الاستعمار ومطالب التحرر القومي . يتخذها العرب رمزاً لأمانيهم القومية واختباراً للمبادىء المثالية في العالم الجديد ، وحداً فاصلاً لمعرفة العدو من الصديق ...

فعلى من اراد اكتساب صداقة العرب حقاً ان يعدل عن المساومة ، وينزع من ذهنه مبادىء الاستغلال والتمويه ...

وعلى من يحاول فرض مصالحه على العرب فرضاً مقنعاً بثوب « الصداقة » الجوفاء ، ان يدرك انه يعرض نفسه لتيار قوى التحرر العربي الجارف ، وانه بذلك يطرح قوى العرب الايجابية من حسابه الخاص في اليوم العصيب .

معركة التحرر الحاسمة

... وبينما نحن نعد الصفحات الاخيرة من هذا الكتاب لايصاله الى ايدي القراء ، نرى جميع الدوائر العليا المعنية بقضية فلسطين ، تبذل منتهى النشاط لاعداد حدث خطير للغاية ، تطلع به على العالم ، ويكون له ما بعده في تقرير مصير هذه القضية الكبرى .

فهذا مجلس الامن الدولي يعقد جلساته المتوالية للبحث في كيفية امكان تنفيذ « القرار الارعن » الذي اتخذته هيئة الامم المتحدة لتقسيم هذه البقعة المنكودة من الوطن العربي ...

وهذه « لجنة التقسيم » الدولية ، التي اختارتها الهيئة السالفة الذكر لتحمل مسؤولية تنفيذ ذلك القرار ، ومواجهة ما سيترتب عليه من المفاجاآت والانتقاضات ، وردات الفعل العنيفة ، يجتمع اعضاؤها مراراً ، فيزدادون شعوراً بثقل العبء الذي انيط بهم حمله ، كما يزدادون شعوراً بالعجز عن تحقيق مثل هذه المهمة التي ثبت انها غير قابلة التحقيق . فهم تارة يعودون الى مجلس الامن يطلبون منه تأليف « قوة دولية » لتكون بمثابة اداة تنفيذ لهم عند ما يشرعون بممارسة

مهمتهم الرسمية تلك ، وتارة يؤجلون موعد مباشرتهم « بالعمل الجدي » ، كأنما هم يتوقعون احداثاً اخرى ، تخرجهم من هذا الموقف المتردد الى نتيجة سلبية او ايجابية بصورة عفوية ...

ولقاء هذه « الاستعدادات الدولية » ، يعقد مجلس الجامعة العربية دورته الخاصة لتتبع سير القضية من الناحية الدوليـــة من جهة ، ثم لاتخاذ استعدادات عربية من جهة اخرى ، مستقلة بذاتها ، مستهدفة تنفيذ ارادة سائر الشعوب العربية بتحرير فلسطين ، رغم ما يتخذ من القرارات الدولية او الاجراءات المحلية ، التي تأتي كلها مخالفة لأماني العرب القومية ...

وفي داخل فلسطين تجري تطورات هامة بنفس الوقت ايضاً ...

فالسلطات البريطانية تستمر في مناوراتها العسكرية « الغامضة » التي تغطيها دوماً بغطاء « الجلاء السريع » المزمع تحقيقه في موعد قريب (١٥ ايار القادم) لكنها رغم ذلك لاتزال تناقش قوى العرب المناضلة داخل فلسطين ، الحساب باسم صيانة الامن . كما تكرر « لفت نظر » الدول العربية المجاورة الى انها لاتزال هي صاحبة السلطة الشرعية في البلاد حتى الآن ، ولايسعها الا ان تراقب بحذر استمرار تغلغل القوى المحاربة في الخارج الى داخل البلاد ...

والمنظمات الصهيونية اخذت تشعر بدنو الساعة الحاسمة رغم ما يجري من المناورات الفاشلة لتأخيرها في مجلس الامن ، او في واشنطن ولندن . لذلك نراهم يسترون شعور الجزع والهلع تحت ستار الاستعدادات العسكرية ، وتكثيف القوى ، وتحصين المستعمرات والمراكز الرئيسية لهم ..

اما قوى النضال العربي فهي لاتنتظر الى كل ما يجرى من المناورات ،

والحركات ، والاستعدادات ، الا بصورة سريعة خاطفة . اذ انها لاتعرف لها سبيلاً الا تحقيق الاماني القومية لتحرير فلسطين من كل سلطة اجنبية او مطمح خارجي ، وهي مصممة على خوض المعركة الى النهاية ، دون ان تنظر الى نوع القوى التي تواجهها في الجبهة المقابلة ، او جنسيتها ، او كميتها ايضاً ...

وعلى هذا البناء نجد اننا اصبحنا على عتبة معركة التحرر الحاسمة التي يترتب على نتائجها المصير النهائي ...

فاذا تركت المعركة حرة داخل فلسطين ، ومقتصرة على الصراع بين القوى العربية والصهيونية فقط . فاننا نعرف آنذاك كيف نصفي هذا الحساب المزيف ، ونمحو من مخيلة شذاذ الآفاق ، اسطورة تجديد « المملكة اليهودية » على ركام الكيان العربي القومي .

اما اذا شاءت المطامع الاستعمارية الاستغلالية ان تزج باصحابها الى هذا الميدان ، فتتدخل تحت ستار دولي ، او دعوى حماية مصالح او ما شاكل ذلك من الاسباب الواهية التي اتقن الاستعمار الحديث اختلاقها ، فان الصراع آنذاك سيتعدى نطاق فلسطين عملياً ، وان ظل محصوراً ضمن حدودها عسكرياً . وستنقلب هذه المعركة الى معركة تحرر حاسمة بالنسبة لجميع الاقطار العربية على الاطلاق ، لاسيما والصراع لا يزال مستمراً بين روح التحرر المطلق ، وبين مطامع الاستعمار المقنعة والمقشعة ، في كل قطر عربي بمفرده ...

واذ امتدت المعركة الى هذه الحدود ، فسيدخل في حسابها اذن ، الى جانب المطامع الاقليمية ، قضايا الامتيازات الاجنبية على اطلاقها ، ووسائل الاستثمار الاقتصادي ، والقيود الدبلوماسية للسياسة الخارجية ،

واصول التعامل التجاري ، ومـــا الى ذلك من القضايا الدقيقة ، والمواضيع الحساسة ، التي اغضت البلدان العربية نظراً عن بعضها حتى الآن ، وتناولت بعضها الآخر بالبحث ، بروح المودة واللين ، وافتراض حسن النية المتبادلة لدى الفريقين ...

وعلى كل حال ، فنحن لا نرسل هذا القول تلويحاً ولا تهويلاً ، بل اننا نعني ما نقول ، ونعرف ما نعني ...

ان العرب – منذ فجر نهضتهم الحديثة – كانوا يعتبرون القضية العربية وحدة لاتتجزأ . وكانوا يتخذون حرية جميع الاقطار العربية على الاطلاق هدفاً اساسياً لنضالهم القومي المشترك .

لكن المطامع الاجنبيـة اتبعت اسلوب التجزئة والتفريق ، ليسهل عليهـا التسلط والتحكم ، وفرض الارادة على جميع الاجزاء ، بواسطة تسليط قواها الغاشمة على كل جزء بمفرده .

فكان من العرب آنذاك ان انصرفوا لمعالجة قضاياهم الموضعية في كل قطر على حدة ، لكنهم ظلوا مشتركين في اهـدافهم الاساسية ، متحدين في مطاليبهم القوميـة . وشعارهم حيثما كانوا : حرية كاملة ، وسيادة مطلقة ، وتعاون وثيق بين سائر الاقطار العربية ، في سبيل الوصول بها جميعاً الى الوحدة القومية المنشودة في ظل السيادة التامة ، والاستقلال الوطيد .

وهذه الطريقـة في النضال ، وهذا الدستور القومي الذي لايقبل التحويل ، هما اللذان دفعا بسائر الشعوب العربية لخوض معركة فلسطين ، في سبيل الدفاع عن مرافقهم الخاصة . وصيانة حرية البلاد العربيـة العامة ، التي لم تعـد تقبل التجزئة كما اشرنا الى ذلك في عدة مواضع خلت .

فليدرك اصحاب الاغراض الستراتيجية في بلاد العرب ، وارباب المصالح الاقتصادية والاستعمارية ، ومن يتصل بهم ، دستور العرب هذا ..
وليقرروا موقفهم داخل فلسطين على ضوء هذه الاعتبارات ، وليسعوا الى اعتبار مصالحهم في سائر الاقطار العربية على اساس موقفهم الصريح في فلسطين . . .

واذا اراد بعضهم ان يتبع اسلوب « المساومة المزدوجة » فليتأكد انه سيصل الى نتيجة واحدة محتمة ، هي مضاعفة رد الفعل في الجهتين بآن واحد . . .

وقد ثبت ذلك عملياً في الاشهر المنصرمة ، مما لم يعد يستدعي زيادة في التفسير والتفصيل . اذ اتضح تماماً ان كل مظهر سلبي تفصح عنه اية دولة كبرى داخل فلسطين ، يثير موجة سلبية مقابلة ضد مصالحها في سائر الاقطار العربية الاخرى . كما ان كل محاولة ضغط تقوم بها تلك الدولة – او سواهـــا – في اي قطر عربي معين ، يؤدي الى مضاعفة الاندفاع في داخل فلسطين نفسها ...

أن الصهيونية وحدها ، مهما بالغت في الاستعداد والتهويل ، لاعجز من ان تقف في وجه قوى النضال العربي ، لا سيما وقد اجمعت كلها على خوض هــذه المعركة حتى النهاية ، واعتبرتها الحد الفصل بين الحرية والاستعباد ، والحياة والموت .

فمعركة فلسطين المحلية هـــذه ، هي بالواقع معركة التحرر العربي الحاسمة . واصرار الدول الغربية الكبرى على تأييد « مشروع التقسيم » معناه تشبث هذه الدول بالاحتفاظ بدعامة ثابتة لمطامعها الاستعمارية في بلاد العرب ، وهذا مالا يقره هؤلاء مطلقاً .

فان شاءت الدول الحليفة الكبرى المحافظة على صداقة العرب ، فعليها احترام ارادتهم القومية ، وتحقيق مطاليبهم المشروعة ، وبذلك تتفادى توسع نطاق هذا الشر المستطير ...

واذا ارادت التستر وراء ستار الصهيونية لكبت نزعات العرب الاستقلالية ، وخنق حركتهم التحريرية وهي في ريعانها ، فليبشروا بصراع طويل الامد ، يحرمهم نعمة الاستقرار والاستغلال في الشرق ، ويجعل السلام العالمي اكثر قلقاً ، والميزان الدولي اكثر اختلالا .

« ولله الامر من قبل ومن بعد »

فهرست الكتاب

تمهيد

صحيفة :

صراع بين الشرق والغرب

الصليبية الأولى

١ - عواملها وادوارها

الصليبية الاولى

٢ - حالة العالم العربي

صحيفة :

الصليبية الجديدة

الصهيونية

عدوان غربي على الشرق

الصراع الأممى
ومستقبله فى فلسطين

معركة فلسطين
ومصائر العرب

للمؤلف

فلسطين العربية
في ماضيها وحاضرها ومستقبلها

الصليبية الجديدة
في فلسطين

تحت الطبع

سايكس - بيكو
وعامة الاستعمار الاوروبي في بلاد العرب

81